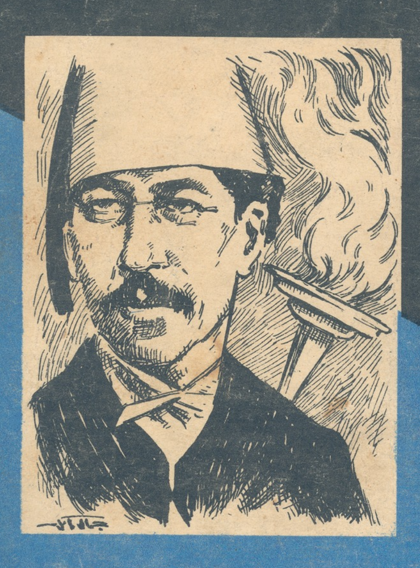
الصحفي الثائر





دكتور ابراهيم عبده

إهـــــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية



العدد السابع

الصحفي الثائر

الدكتور ابراهيم عبده

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

فى هذا الكتاب

فى هذا الـكتاب سيرة لصحفى ثائر نادر المثـال فى تاريخ الصحافة المصرية ، ولم يكن فى المقدور نشر هذه السيرة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ذلك أن صاحبها كان سوط تأديب لبيت محمد علي ، ومؤرخا دقيقا لفضائح العصر ومباذل القصر ..

ويمتاز يعقوب صنوع ، أو أبو نظارة كما عرف فى التاريخ ، بأنه كان أول من أنشأ مسرحا فى مصر ، وأول من أصدر صحيفة هزلية كاريكاتورية فى الشرق قاصيه ودانيه ، وأول من أخرج مجلة بالألوان ، وأول من نفى من أصحاب الأقلام ، وأول من جاهد فى سبيل مصر والسودان وكافح الاستعمار فى كل مكان أربعة وثلاثين سنة وبطريقة لم يسبقه اليها انسان ..

وقد وفقت فى أسفارى لأوروبا وأمريـكا الى الحصـول على مجموعته الصحفية « أبونظارةوأبو صفارة وأبوزمارة والحاوى » وغيرها من الصحف والمجلات كاملة لاينقصها عدد ، فأصبح لدينا الجدول الأصيل لسيرة أستاذ من أعلام صحافتنا ، رأيت أن أترجم له فى هذا الكتاب وأبسط بعـض جوانبه الحـافلة بالطرائف والعبر ..

فاقرأ معى فى هذا الـكتاب تاريـخ المسرح وكيف تطور ، وتاريخ النكتة المصرية ومافيها من عمق وسخرية والكاريكاتير الخالق ، والألوان البديعة ، والدراسات الرائعة والأزجال اللاذعة ، وتصوير الحقائق وتفسير المسائل السياسية العليـا منذ عهد اسماعيل الى مطالع القرن العشرين ..

وبعد ففى هذا الكتاب أعرض عليك صورة ممتعة للعنـاد الرائع المروع من أجل الفكرة والرأى السديد ، لترى نفسـك فى هذا الكاتب الحر الذى رحب بالنفى والتشريد أيام الخـديو اسماعيل وأبى أن ينتظم فى ركب الطواغيت أو يمضى فى صفوف العبيد ، وبقى أربعة وثلاثين سنة صلبا على الشدائد ، قويا على المحن ، لاتتزعزع ثقتـه فى وطنه أو مثـله ، ولا تقف دون رسالته حواجز أو عقبات ، ولا تحول دون اعلان عقيدته سدود أو قيود ..

ابراهيم عبده

أول ابريل سنة ١٩٥٥

روح العصر

كان روح العصر الذى نشأت فيه الصحافة الشعبية يدعو الى لون جديد من الصحف التى لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى ، ولم يكن من طبيعة الأشياء أن تصدر صحف ساخرة الا فى البلاد المصرية التى ولى أمرها الخديو اسماعيل ، وأشاع بالأزمات التى خلقهـا كثيرا من الفـكر الجـديدة التى كانت منطوية فى نفوس النخبة المنتقاة من أعلام الرأى الذين درسوا فى مصر أو نهلوا من أوروبا ..

ولى اسماعيل الأريكة الخديوية ، فكان ضرورة لمصر بخيره وشره ، فقد كان الرجل مغرما بالمظاهر معنيا بتقليد الأوروبيين، يريد أن يأخذ حياة شعبه كما يأخذ ملوك أوروبا حياة شعوبهم واعتملت فى نفسه تيارات مختلفة من القديم والجديد ، وتطاحن ارث الآباء والأجداد المنطوى على احتقار الشعب كبيره وصغيره ، مع فكرة التقليد الذى يرفع من قدر الوطن ويضع له فى الحساب وزنا واعتبارا ، ودارت المعركة حامية الوطيس بين نفسية الحاكم الشرقى العتيقة وبين نفسية الأمير الذى يريد جـديدا يماثل حياة الغرب المتحفز الوثاب .

وخرج اسماعيل من هـذا الصراع العنيف يترنح من هول المعركة ، فلا هو على سجية الأسلاف ، ولا هو صورة من أمراء الغرب المحدثين ، كثير التردد ، يذهب مرة الى أقصى اليمين ، ويذهب أخرى الى أقصى اليسار ، فنجده يحتضن حينا رجال المدرسة القديمة من الأتراك حتى أوغل عليه بذلك خونة الشعب وخصومه الطبعيين ، ثم نراه حينا آخر يفتح صدره لنخبة من الشبان المجتهدين الذين درسوا فى أوروبا وهم من أبناء الفلاحين ، فأكبر بذلك الوطن والوطنيـين ، وفجأة ينصرف عن الأتراك والمصريين ، فيجعل من بطانته وأصدقائه جماعـة من الفرنجة يستمع اليهم ويصغى الى نصحهم ويعمل بمشورتهم ، وان خالفت نصيحتهم مصلحة البلاد ودينها ، وان أساءت أيضا الى خزانة الدولة وأغرقت الأمير فى الديون ..

ومن الأدلة على هذا الاضطراب الفكرى الذى كان يعتمل فى نفس اسماعيل ، موقفه من الصحافة والصحفيين ، وموقفه من التمثيل والممثلين ..

ولى اسماعيل الحكم فبدأ يصلح من جريدة (الوقائع) صحيفة الدولة الرسمية حتى رفعها الى مقام الصحف « المعتبرة » كما يقول ، ثم أنشأ الى جانبها صحفا شتى تصدرها الحكومة ولا تبخل عليها بالأدوات الأدبية والمادية ، فكانت لها صحف يعسوب الطب ، والجريدة العسكرية المصرية ، وجريدة أركان حرب الجيش المصرى ، ثم روضة المدارس صحيفة التلاميذ والمعلمين .

فهذا الأمير الذى يصطنع حياة الأوروبيين وتفكيرهم يصدر الصحف على سبيل المحاكاة والتقليد ، ثم يذهب الى أبعد من صحف رسمية تخضع خضوعا شاملا لتوجيهه وارادته فيأذن باصدار صحيفتى « وادى النيل وروضة الأخبار » وكلتاهما من الصحف الشعبية الأولى ، ولكنهما تخضعان لتوجيه الحكومة وتتلقيان منها مقابل ذلك اعانة مالية مجزية ، وهى اعانة مستخفية لا يعرفها عامة الناس أو خاصتهم ، حتى تبدو الصحيفتان حرتين لا رقيب عليهما .

فاذا ظن بعض المجددين من الشبان المصريين أن اسماعيل ينهج نهج الغرب ، فيمنح لمن يشاء ترخيصا باصدار صحف حرة ، تقدم من بينهم اثنان ، ونالا ترخيصا باصدار صحيفة « نزهة الأفكار » وكتبا فيها كما يكتب الأحرار ، فاذا هى مغلقة بأمر منه بعد صدور العدد الثانى .

وكذلك كان الشأن فى أمور التمثيل والممثلين ، كان يأذن للممثل أن يؤلف أو يترجم أو يعتلى خشبة المسرح ، حتى اذا وجد أنه تجاوز المفهوم فى ذلك الزمان ، عصف به وحرمه مهنته أو نفاه كما صنع مع صاحب هذا الكتاب الذى نترجم له ، وقد حال فعلا بين كثيرين من أبناء البلاد الشآمية وبين الاستمرار فى التمثيل حين وجد منهم انحرافا فى اشارة أو عبارة ، ولم يبق الا على المسارح الرسمية وفى مقدمتها دار الأوبرا التى شهدت خيرة الفرق الاوروبية فى سنوات حكمه .

ولم يكن من المحتمل أن تتجاوز الصحافة المصرية هذا المدى الذى رسمه لها اسماعيل ، غير أن الحوادث كانت أقوى منه ،

بل ألزمته الحوادث بأن يفزع هو الى الصحافة والصحفيين . يستعين بها وبهم فيما جد على وطنه من أحداث ، الأمر الذى فرض عليه أن يفتح صدره للمصريين والشاميين ليتخذوا من الصحافة مهنة لهم ، حتى ان الممثلين الذين عجزوا عن أداء رسالتهم التمثيلية لسبب أو آخر ، رحبوا بتلك الظروف ، وانتقلوا الى الصحف منشئين لها أو محررين فيها .

كانت من أهم الاحداث التى فتحت ثغرة فى طبيعة الحاكم الشرقى ، وفرضت عليه محاكاة الغرب محاكاة سليمة فى تكريم الصحافة ، الحرب التى قامت بين الاتراك والروس ، وقد مست الحرب حياة المصريين مسا شديدا ، بما كان يجب عليهم تقديمة لسلطان الأتراك من عتاد ومال ورجال ، وأراد اسماعيل أن يتهرب من أداء هذه الالتزامات التى فرضتها الفرمانات المختلفة ، فجمع مجلس نوابه ، وعرض عليه العجز المالى ، فأقره بالطبع على وجهة نظره ، وفى هذا اعلان رسمى عن قصر يد الحكومة المصرية فى القيام بالواجب المفروض عليها فى محنة أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين .

ثم كان اسماعيل يرى فى اشتباك الدولة العلية فى حرب قاسية مع الروس فرصة لتوسيع سلطانه ، ولا يمكن أن يتم توسيع سلطانه الا اذا تهيأ الرأى العام الأوروبى وتهيأ الرأى العام المصرى لقبول هذه الفكرة بكشف نواحى الضعف فى دولة الرجل المريض ، وذلك بذكر مساوىء الأتراك على صفحات الجرائد والمجلات ونشر مفاسد الحكم فى القسطنطينية وايالاتها فى الشرق والغرب على السواء

الخديو اسماعيل أو شيخ الحارة ! ..

وكانت تلك الحرب مفترق الطرق فى رســـالة الصـــحافة والصحفيين . .

فقد نشأت عدة صحف ، القليل النادر منها وقف الى جانب السلطان . والكثير القادر فيها كان حربا عوانا على مفاسد الاتراك وهلل اسماعيل لهذه الحرية التي نالتها الصحف ، والتي كشفت بمقتضاها عن مواطن الضعف فى الدولة العثمانية ، ولم يفطن الى أن حرية الصحافة مكنت للصحف وهى تتناول قصة الحرب وأسبابها من أن تعلن عن مباذل الملك فى دولته وهى تقارن بين الدول الغربية الحرة وبين دولة الخليفة المريضـــة ومايدور فى فلكها من دويلات . ولم يطل الزمن حتى سفرت الصحف المصرية ورفعت النقاب . وهاجمت فى عنف وشدة حاشية الخديو ويده المبسوطة من غير حساب ، وتدخل الاجنبى فى مقدرات البلاد ، وسلطة الحاكم المستبد الذى أفسد طبائع النـــاس ومد للرشى والظلم والعدوان .

وجاءت المصادفة برجل أشعل فى النفوس لهيب الثورة بما نشرته له الصحف من مقالات ، وبما ألقاه على الصفوة فى المناظر والبيوت من الآراء والأفكار ، وكان هذا الرجل شعلة متنقلة فى بلاد الشرق جميعا ، واحتفلت به مصر احتفالا منقطع النظير ، واستطاع فى الفترة الوجيزة التى قضاها فى البلاد أن يكسب اكبار العلماء والفضلاء ، ويكسب رجال السياســة والحــكم ، وينشىء مدرسة من الصحفيين والأدباء .

كان السيد جمال الدين الأفغانى ومضة برقت فى حيـــاة خاصة المصريين لم ينطفىء نورها قط ، فقد استمر هذا النور فى تلاميذه جيلا بعد جيل ، وان كان توفيق قد اســتطاع أن يقصيه عن البلاد حين ولى أمور الحكم ، وكان فى عهد أبيه ــ وهو ولى للعهد ــ من أشد أنصار الشيخ وأكثر رجالات مصر اعجابا به وبما نقله الى البلاد من تيارات فكرية بقيت على مدى السنين . .

كان جمال الدين الأفغاني يرحب بالممثلين والصحفيين أيما ترحيب ، فقد كانت هاتان الفئتان فى مقدمة من استعان بهــم على اشاعة مايرجوه لمصر من تقدم وانتباه فكان يكتب للصحف ويسعى لأصحابها عند الحكومة لتمنحهم تراخيص الصدور ،

وكان يستمع الى الروايات التى يزمع البعض تمثيلها ، وكانت ندوات الأدب والفن تستيقظفي بيته منذالصباح الباكروتمضى الى ساعة متأخرة من الليل ، وكان يؤثر جماعة خاصة من أهل الفن والأدب بالحب والعطف والتقدير ..

وكان من بين من آثرهم بالود والتأييد يعقوب بن صنوع صاحب هذه الترجمة فقد كان له موجها على نحو ماسنقرأ فى هذا الكتاب ..

فروح العصر كانت تفترض فيما تفترض من جديد أن تكون فى مصر صحافة لم تعرفها من قبل ، ولم يكن الجديد ، تلك الصحافة الشعبية الحرة التى أصدرها جماعة من الاحرار ، فقد عرفت تركيا وبعض بلاد الشرق العربى هذه الصحافة ، بيد أن الجديد حقا ماجاء به أبو نظارة في صحيفته الخالدة على التاريخ ، وهي صحيفة كان فيهاللمؤانسة والطرائفوالفكاهات والرسوم مكان الصدارة ، ولم يكن فى صحيفة أخرى شيء من هذا لعدة سنين ، فأصبح ماجاء فيها من حكايات ومحاورات وصور حدثا لم يعرف له نظير في الشرق من قريب أو بعيد .

ولاءمت (أبو نظارة) طبع صاحبها ، بل لاءمت طبع العصر نفسه ، وقد جاءت في زمن تعددت فيه ألوان الحياة وتباينت غرائبها وأصبحت سجلا لها يرويها على طريقة كاتبنا الساخرة، وكانت صحيفتنا نعم السجل لتلك الحياة التى رقت ولانت ، وماعت في بعض الأحايين !

أنظر كيف أخذ الناس حياتهم اليومية في عصر اسماعيل .

انك لتدخل بيوت الأمراء والعظماء والأغنياء فتسمع الى الموسيقى والأغانى ، وتسمع توقيع نسائهم على البيانو أو أناشيد بناتهم فى (مقابلات) الصديقات والقريبات ..

وانك لتدخل بيوت السادة القادرين فتجد أكثر من مجلة أجنبية للتجمل والأزياء ، وتسمع حديثا باللغة الفرنسية بين سيدات البيت وآنساته ، وتكاد تنكر أنك فى بيت شرقيوأنت تنصت الى الموسيقى أو الى الحديث أو تشاهد ربة البيتوبناتها جالسات الى لوحات الرسم تقضين أمامها وجه النهار ..

وانك لتدخل بيوت الموسرين فتجد الموائد قد أعدت على الطريقة الفرنجية ، أو تجد الصخب يملأ فراغ أصحاب البيت،

فقد كانت بيوت القوم منتديات للسمر العابث فى كثير من الليالى ، وللرقص الخليع حتى الصباح ، وكان للخمر وغير الخمر مكان في سمر الرجال بل في سمر النساء بين آن وآن ..

وانك لتسمع الناس يحدثونك عن مباهج القصر الخديوى وما شهده من حفلات (الباللو) كما تقول صحف ذلك العهد، ويروى لك عامة الناس قبل خاصتهم مادار فى تلك الحفلات من ألوان الرقص الفرنجي . كما تنصت اليهم وهم يتندرون بملابس النساء والرجال ، ويحكون لك عن الشراب والطعام ، وما يصحب الشراب والطعام من موسيقى صاخبة أو حالمة ، ويرتبون على ذلك كله أشياء وأشياء !! ..

وانك لتقرأ فى الصحف المعاصرة وفى مقدمتها الوقائع الرسمية ، وصفا ممتعا لسباق الخيل ، وهو السباق الذى كان يشارك فيه الخديو ووزراؤه وأعيان البلاد ، وينهج نهجهم الفقراء من العامة ، حتى اختلت موازينهم بالمراهنة والمقامرة ، وماترتب عليهما من فساد الحال وسوء المثال وذل السؤال ..

وانك لتذهب الى قهوات الفرنجة أو الى قهوات أبناء البلد فتجد السمار جلوسا فيها ، قل منهم من ينصرف الى صحيفة القهوة فيقرأها ، وكثر منهم من يلعب النرد أو الورق ، وكثر منهم أيضا من يحكى النوادر أو يروى الحكايات فيضحك المستمعون حتى يستلقوا على أقفيتهم ، ويتنقلوا بها من مكان الى مكان ، وبذلك طفح قاموس النكات المصرية بأروع ما أثر عن المصريين من نكات ، واحتفظ لهم العصر بالصدارة فى التنكيت والتبكيت على أنفسهم وعلى غيرهم من المواطنين ، بل على غيرهم من شعوب الأرض قاطبة ، وبذلك أصبحت القهوة المصرية فى أيام اسماعيل ندوة للرواية والحكاية والنكتة ، ومكانا يخف اليه كل مفتن وأديب ..

كان روح العصر يفرض على صاحب الترجمة أن يصدر صحيفته ، فكل شىء فى مصر جديد .. ارتفعت طوابق المنازل، وأنيرت الشوارع ، وأبيحت الخمر فى كثير من الأحياء التى ماكان يستطيع أن يشرب الخمر فيها مواطن من المسلمين أو المسيحيين ، وجرت العربات بخيولها المطهمة فى الشوارع والميادين المرصوفة . وانتشرت دور التمثيل وفى مقدمتها دار

الأوبرا الخديوية . وخفت العذارى الى الحدائق العامة فى جنح الليل أو فى وضح النهار ، وصفت العربات فى أطراف المدينة تزخر بما يندى له الجبين ..

كل ذلك كان فى حاجة الى مؤرخ أو أديب ، وكان ابن صنوع هذا المؤرخ وذاك الأديب ، وان اختلف الناس فى شأنه ، فقيل انه صحفى ، وقيل انه ممثل ، واختصم مؤرخوه فيما كانت عليه طبيعته ، أكان صحفيا أم كان مؤرخا وأديبا أم كان ممثلا بعيد الصيت ؟ ..

وفى تمثيلياته ، مؤلفة ومعربة ، تبين قدرة الممثل وتبرز ملكة النقد وتظهر شخصية الفنان المفتن ..

وفى صحفه تروى الحقائق طبيعة يعقوب بن صنوع ، الأديب الشاعر الناثر ، والصحفى القارح الساخر ، وامام الصحافة الفكاهية غير منازع ..

●●●

مدارج الطفولة

هذه قصة الفنان المفتن يعقوب بن صنوع ، الفنان الذى خلق في بيئته وجيله مالم يعرفه من قبل جيله وبيئته ، نروى تلك القصة منذ ولدت سنة ١٨٣٩ الى أن قضى صاحبها فى مطالع القرن العشرين ..

هى قصة اليهودى المسلم الذى قرن بين دينين ، لقد حملت فيه أمه اليهودية ، وولدته مسلما ، هبة منها للاسلام والمسلمين واصغاء منها لوحى فى قلبها ، وتلبية لتعاليم العراف الذى أنبأها بالخبر اليقين ..

حقا ان مولد يعقوب يشبه سيرته الحافلة بأمتع ما أثر عن سيرة صحفى فى تاريخ القرن التاسع عشر ..

ان قصة مولده يرويها صاحبها فى ذكرياته التى كتبها عن تاريخه بخط يده ، وأخذنا على عاتقنا اذاعتها وتحقيق مافيها من بيانات جانبت الصواب فى كثير من الحوادث والتفاصيل ، غير أنها قصة ممتعة ، ماكان لأحد أن يعرف دقائقهـا لولا أن صاحبها كتبها فى ساعات من التجلى ، ولم تسعفه تلك الساعات ليواصل كتابة هذا التاريخ الجميل فوقف به عند نفيـه الى باريس .

كان الولد الوحيد لأمه وأبيه ، لم يرزقهما الله غيره من البنين، وقد واريا قبل مولده أربعة أطفال لم يروا نور الحياة الأسابيع ثم مضـوا الى جوار ربهم مخلفـين الحسرة فى قلب الوالدين اللذين كانا ينشدان طفلا يخفف من غصة الحياة ، وما أصعب الحياة على والدين يفقدان فى كل سنة وليدا بعد قليل من ولادته المحسرة ! ..

يذكر يعقوب بن صنوع أنه مات لأمه أربعة أطفال ، فاذادب هو فى أحشائها نصحت لها صديقاتها أن تفزع الى شيخ مسجد الشعرانى فعنده التمائم والتعاويذ ، وعنده المحصنات ضدموت الأطفال ! وفيه من الصفات الطيبة مايقربه الى الله ، فاذا استجار

به من أجلها ، قبل شفاعته وأبقى على جنينها وحفظ له الحياة الى أمد طويل ! ..

وان الأم الحزينة لتفزع الى شيخ مسجد الشعراني ، وهو وجل وقور شارف على المائة ، فيه صلاح وتقوى ، ترجوه أن يتوسل الى الله أن يحفظ لها جنينها ويبقيه قرة لعيون والديه ، وقال الشيخ الوقور وكأنه يكشف عن الغيب البعيد « انربنا سيبارك ثمرة احشائك وسترزقين بولد » وكادت الأم تفقدمن الفرح اتزانها ، فان الله سيبقىعلىجنينها ! وهو ولد ! ومأأسعد أمهات ذلك الزمان حين يكون في بطونهن ولد ، فأن ذلك يكبر من مقامهن عند أزواجهن ويبعدهن عن الحسرة التي تشعر بهـا كل أم تنجب بنتا ! غير أن الشيخ الوقور يستكمل نبوءتهبقوله .. « وان نذرته للدفاع عن الاسلام فلسوف يعيش ، اكسه من حسنات المؤمنين ليكون متواضعا ، ولسوف يجد مايريد بفضل بركة خالقه » !

وأصغت أم يعقوب الى نصيحة الشيخ وأطاعت ما أمرها به وآثرها زوجها على أن يهب ابنه للاسلام والمسلمين . غير أنه اعترض في أول الأمر على فكرة كساء الطفل المرتقبمنحسنات المحسنين ، واعتبر في ذلك مهـانة لاتليق به . وهو يتمتع بالحظوة لدى البلاط ويستشيره الأمراء في مسائلهم الخاصة » غير أن الزوجة أصرت علىأن تلبىنصيحة شيخالضريحبحذافيرها لتضمن سلامة وليدها حين يرى النور ..

ويذكر أبو نظارة أنه حين كبر حفظ القرآن وعاهد والدته على أن يوفى نذرها وأن يجند نفسه لخدمة الاسلام والمسلمين ، ويحكي لنا عن مولده فيقول « وما أن فتحت عيني لأرى نور الحياة حينما وصلت الى وادي الدموع حتى انزلقت من بين يدى المولدة التي كانت في استقبالى . وظللت ثلاثة أيام بين الحيـاة والموت دون أن يعرفوا أن رأسي قد شج ، ولكن كان مكتوباعلى أن أعيش لأؤدي رسالة مقدسة ألا وهي مكافحة الأباطيل التي تفرق بين المسلمين والمسيحيين ، باظهار سماحة القرآن وحكمة الانجيل ، وهكذا تتسنى لى الملاءمة بين قلوب الفريقين » .

ومن الطريف أن يعقوب بن صنوع لم يشر قط في تاريخهالى أنه ولد من أبوين يهوديين ، مع أن جميع الكتب وكل منذكره

عابرا أو محققا أكد هذه الحقيقة التي ينطق بها لقب الأسرة ، وتنطق بها معالم وجهه اليهودي الأصيل ، وخاصة عينيه ، وفيهما من نظرات اليهود الشيء الكثير ، وان كان قد رد مافيهما الى الرمد الذي أصابه وهو صغير ، وبقى يلازمه مدى حياته لافتقار أبويه طبيبا اخصائيا يعالج ما أصاب عيني ولدهما من هذا الداء الثقيل ، غير أن صحفيا أجنبيا زار مصر وكتب بعد عودته فى سنة ١٨٧٩ عن يعقوب ابن صنوع فصلا ممتعا أنبأنا فيه عن مرض عينيه ، وحلل المرض وهو يحكي لنا عن المترجم له بقوله « ... ومن البداهة بمكان أنه أستاذ من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ومن أخمص قدميه الى قمة رأسه ، فلنتخيل رجلا ربع القامة أصلع نوعا الا من بضع شعرات سوداء متناثرة ، وهى من السواد الخاص الجميل الذي يميز الجنس الاسرائيلي . انه مصاب بنوع من الرمد أو بالأحرى بشيء من الضخامة في العينين ناشئة فيما يظن من توهج الرمال فى فلسطين ، وقد انتقل اليه أثر هذا التوهج بطريق الوراثة من جيل الى جيل » .

ثم يستطرد الصحفى متحدثا عن المفارقات في (يهودية) يعقوب بقوله « وكثيرا ماسمعت حولى العبارة الآتية : ان فى عينى يعقوب صنوع ذاك اللهب الوهاج الذى نراه فى عينى البارون جيمس روتشلد وهى الصفة الوحيدة التى تجمع بينهما ..

« لقد أصابوا كبد الحقيقة ، ذلك لأن يعقوب صنوع لم يتسم بأية صفة من صفات رجال المال . فمزاجه ثائر على الأرقام والتشكيلات الحسابية الى أبعد مدى بل ان الخلاف مستحكم الحلقات بينه وبين علم الحساب منذ نعومة أظفاره .. »

هذا رأى الصحفى فى كاتبنا العظيم ، وقد أخطأه التوفيق فى تقدير كفاية المترجم له في شئون المال والحساب ، وان كفاحه وصلاته فيما بعد برجال الحكم والمال لدليل على أن كثيرا من صفات آل اسرائيل لايزال لها مكانها المقدور فى نفسية الكاتب الأديب ! ..

حقا ان المترجم له لم يقم وزنا لمغريات الخديو اسماعيل حين قرر مخاصمته ، ومضى فى هذه الخصومة الى نهاية الشوط ، ولم يقف خصومته عند اسماعيل الخديو الذى نفاه بل مضى

يجاهد ابنه الخديو توفيق ، ويكافح معه أنصـــاره من الوزراء ورجال الاحتلال ، وكان في مقدوره أن يحصل على المال الوفير اذا مشى في الركب وانتظم في صف المنافقين وطلاب المصالح ، الا أن هذا كله لاينفي أن عامل الوراثة أهله للـكفاح المادى ، فانتصر في باريس ، وحصل على المال اللازم الذى مكنــه من تخليد اسمه في التاريخ ..

ثم نصغى الى صاحب التاريخ يروى تاريخه فيقول « وحين بلغت الثانية عشرة من عمرى كنت أقرأ التـــوراة بالعبرية والانجيل بالانجليزية والقرآن بالعربية وأفهمها تماما . وكان أول شعر نظمته باللغة العربية مديحا لناظر المدرسة الذى كان يعاقب التلاميذ الذين دأبوا على الضحك منى بســـبب عينى المحمرتين . وقد تلوت هذا الشعر على والدى ، وكان يقرض الشعر ، فبصرنى بأخطائى فيما نظمت ونصحنى أن أصـــيغ قصيدة في مدح الأمير أحمد حفيد محمد على ، فكتبت قصيدة طويلة قدمها والدى للأمير الذى لم يصدق أن صبيا في سن الثالثة عشرة يستطيع أن يكتب هذه الأشـعار التى ــ بينى وبينك ــ ! لم تكن جيدة ، وقال لأبى أنه يريد أن يرى هـــذا الطفل ذا الذكاء الخارق » ..

وتم لقاء يعقوب بالأمير ، وكان أبوه قد أوصاه حين يحظى بهذا اللقاء أن يتقدم فيقبل يد الأمير باحترام وتوقير ، وفي هـــذا اللقاء تكشفت طبيعة الصبى الثائر على الأوضاع والتقاليــد ، وهو يرويها لنا في بساطة ووضوح لايشكك في صحة معظمها ، ومستقبل جهاده ينبيء عن جوانب الصدق فيما حكاه عنها « لقد كانت قاعة الاستقبال غاصة بالزائرين عندما دخلت وقدمنى والدى الى الأمير وهو يقول : هذا هو الشــاعر الصغير الذى يطلب شرف لثم يديكم أما أنا فقد حييته بتلك العبارة البسيطة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » فنهرنى أبى بعنف وقال لى بصوت خفيض « قبل يده أيها التعس » فأجبته : لا ، لن أقبلها ، فما كان من والدى الا أن هددنى ولكننى تماديت في الرفض » ..

ويذكر الصبى الصغير أن الأمير لاحظ هذا اللغط الذى شغل الابن وأباه فاستوضح الوالد أسبابه غير أن يعقوبا سبق أباه

الى جواب حازم في كبرياء ملحوظه ، وتوجه الى الأمير قائلا « لا أدرى لماذا يريد والدى منى أن أقبل يدكم الملكية . هل أنت امام أو قسيس أو حاخام ؟ لا انى انسان مثلك ، لا بل أنا أعرف قرض الشعر وأنت لاتعرفه » ..

ويعلق المترجم له على ذلك بأن هذه الكلمات وان نزلت على أبيه نزول الصاعقة الا أنها كانت مفرقا من مفارق الطرق التى صادفت حياته ، فان الأمير الذكى بدت عليه علامات السرور « فهنأنى وأرسلنى على نفقته لأتلقى العلم فى أوروبا » ثم يمضى يعقوب فيقول انه أمضى عدة سنوات فى أوروبا فلما عاد نزل قضاء الله فى الأمير الكريم الذى أولاه « نعمته » وفى أبيه أيضا ، فوجد نفسه رب أسرة ، ليس له مال يغنيه وان كان له علم تام بلغات أربع ، كانت هى كل رأس ماله الذى تقدم به الى احدى المدارس الحرة التى قبلته مدرسا بها ، وهكذا أقام أوده بما تدره عليه المدرسة من أجر ، ووجد وقتا طيبا للتمكن من اللغات التى يعرفها وأضاف اليها لغات أخرى حتى أنه استطاع حين بلغ الخامسة والعشرين أن يجيد ثمانى لغات كتابة وحديثا بل تمكن منها الى حد اجادة قرض الشعر بها جميعا .

ويؤكد الصحفى الانجليزى المشار اليه فى أول حديثنا أن (أبو نظارة) كان يجيد فى سنة ١٨٧٩ « العبرية والعربية والتركية والانجليزية والفرنسية والايطالية والالمانية والبرتغالية والاسبانية والمجرية والروسية والبولونية » وفى قول هذا الصحفى الرحالة الذى ربطته الصلات بالمترجم له ما يؤكد صحة البيانات التى ذكرها يعقوب فى المخطوط الذى سجل فيه

لباس يعقوب بن صنوع حين كان يخطب فى أوروبا او يحضر حفلة رسمية

تاريخه . بل زاد الرحالة على ماذكره أبو نظارة أربع لغات أخرى يبدو أنه فى سنة ١٨٧٩ لم يكن قد حصلها أو أجادها اجادة تامة ، على أن صحف يعقوب التى أصدرها فى باريس أكدت ماذهب اليه المترجم له والصحفى كلاهما بما احتوت عليه بعض نسخها من لغات مختلفة بلغ عددها عشرا أو يزيد ..

ويصف محرر جريدة « ستر دى ريفيسو » طرائق العيش التى اتبعها أبو نظارة فيقول انه « كان يتنقل من قصر الى قصر ومن خان الى آخر ليعلم أبناء الخديو والباشوات من صبيان وبنات اللغات والرسم والموسيقى ، ولا أستطيع أن أجزم بأن يعقوب صنوع لم يكن أستاذا فى علم الرقص .. فانه قادر على كل شىء اذا ما عزف بصفارته » .. ويذكر أبو نظارة من البيانات ما يؤكد أقوال المحرر المذكور ويزيدها تفصيلا فيروى أن بعض الشخصيات المدنية والعسكرية التى كانت تحكم مصر فى أواخر القرن التاسع عشر تلقت عنه دروسا خاصة أو تتلمذت عليه فى المدارس الحرة أو الأميرية ، فانه أمضى بضع سنين مدرسا أول فى المهندسخانة وعضوا فى لجنة امتحان المدارس الأميرية ..

ويحكى يعقوب فى تاريخه صلته بالخديو اسماعيل :

فيذكر أنه أعجب به قبيل ولايته للحكم فقد ظن أنه سيكون علما على المدنية والحرية ، فلما تربع على كرسى الخديوية مدحه فى قصيدة عصماء ..

وينتقل يعقوب من التحدث عن الخديو وعلاقته به الى المجهود الذى بذله لتعريف الغرب بآداب اللغة العربية والدراسات الاسلامية فترجم قصائد من لغة الضاد الى اللغة الايطالية ، ثم نشر دراسات عميقة من الآداب الاسلامية فى الجرائد الانجليزية ثم يقول « وبينما كنت أطرى الحضارة الأوروبية فى جرائد الشرق ، كنت أكشف فى الصحف الأوروبية عن جمال الشعر العربى وعمقه » ثم انصرف أبو نظارة الى تأليف التمثيليات باللغة الايطالية فكتب ثلاثا منها عن العادات المصرية لقيت نجاحا كبيرا على المسارح الايطالية فى الشرق ، بل لقيت النجاح فى بلاد دانتى نفسها ..

الفنان المفتن

قص علينـــا أبو نضـــارة كيف ولد وكيف ازدلف الى بيوت العظماء ينشر فيها ألوانا من الفنون الرفيعة ، وبين لنا أنه كتب شعرا ونثرا فى الصحف السيارة وأعلن فيما كتب عن حضارة الشرق ودين الاسلام ، وخلق له مدرسة من المدنيين والعسكريين الذين كان لهم فى تاريخ مصر ــ فيما بعد ــ تاريخ ثم أخذ ينشىء التمثيليات ليشبع بها نفسه المطبوعة على الحكاية والرواية والنقد المباح ، وكان نجاح تمثيلياته الايطالية الثلاث حافزا على المضى فيما أهله له طبعه ، فعزم على أن يقيم مسرحا قوميا مصريا ، وهو عمل فنى لم يسبقه اليه أحد فى مصر ·· ولم يكن انشاء مسرح مشروعا سهل التنفيذ ، ولكنه توكل حين عزم متشجعا بما يبديه الخديو اسماعيل نحو تأييد المســـارح الفرنجية وفى مقدمتها الأوبرا الايطالية والكوميدى فرانسيز ، وهما مسرحان جميلان بالقاهرة ··

كان ذلك فى سنة ١٨٦٩ حين فكر يعقوب فى تأسيس مسرح للوطنيين تعرض على خشبته تمثيليات عربية ، وكان ذلك حدثا جديدا وابتكارا غريبا ، فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام نظارة أو متفرجين ، ويقول المترجم له « فألفت حينئذ فودفيل قصيرة تتخللها أشعار ملحنة تلحينا شعبيا » ، وقد مثل تلك الفودفيل « فى القصر أمام باشــوات وبيكوات البلاط الخديوى فضحكوا لها من أعماق قلوبهم » ·· وشجعوه على أن يعرضها فى حديقة الأزبكية وكانت مشهورة بمسرحها القائم فى الهواء الطلق ··

وتوكل يعقوب ــ كما يقول ــ وقرر انشاء فرقة تمثيلية ، واستغرق ذلك أسبوعين تمكن خلالهما من تكوين تلك الفرقة من بعض تلاميذه الذين تتراوح أعمارهم بين السادســـة عشرة والعشرين ، وهم جميعا من الذكور ·· وتخصص واحد منهم فى تمثيل أدوار النساء ! ·· ثم اقيمت الحفلة الأولى وحضرها رجال البلاط والوزراء ، وأقبل معهم أكثر من ثلاثة آلاف مشاهد بين أوروبى مقيم ووطنى أصيل ليشاهدوا هذه البدعة الجديدة

... تمثيلية باللغة العربية !..

ويؤرخ لنا أبو نظارة فيما يرويه عن فرقته سيرة المسرح المصرى الأولى، وهي سيرة لا يعرفهـا المصريون . ومن حسن طالع هذا التاريخ أن صاحبه عنى بتفاصيله وأتاح لنا أن نقف على كثير من أخباره المستخفية ، والتى لم يذكرها مؤرخ من المؤرخين ، وهو يحدثنا عن الفرقة التمثيلية العربية الأولى حديثا شائقا فيذكر أن الممثلين الشبان حفظوا أدوارهم عن ظهر قلب ولكنهم كانوا يرتعدون خوفا قبل رفع الستار «فرأى أستاذهم ـ أبو نظارة ـ أن يشجعهم ، فوقف على خشبة المسرح وحوله الممثلون وتحدث الى النظارة ليعطيهم فكرة عن الفن المسرحى ، وأخذ يقدم أفراد الفرقة للجمهور ، وطلب منه أن يغض الطرف عن الهفوات أو العجز عن التبريز، على اعتبار أنها التجربة الأولى التى تقوم بها أول فرقة تمثيلية عربية فى وادى النيل ويمضى قائلا : « ثم ألقيت خطـابا عن فوائد ومبـاهج المسرح وختمت كلمتى بمدح الخديو » ..

وقد أعادت تلك الخطبة الثقة الى قلوب الممثلين فأدوا أدوارهم كما لو كانوا أهل خبرة ومن أعلام الممثلين ، ويذكر يعقوب أن « سرور وحماس الناس فى ذلك اليوم لا يوصفان ، فقد طلبوا اعادة ثلثى مناظر الفودفيل وحملونى على أكتافهم . وبـكيت لأول مرة من الفرح » ..

خلق يعقوب بن صنوع بفرقته فكرة المسرح العربى فى مصر الحديثة ، وهى فكرة لم يسبقه اليها أحد من المصريين أو الشاميين الذين نزحوا الى مصر بعد ذلك واتخذوا من التمثيل مهنة وحرفة غير أن المترجم له لم يرض أن تعيش فرقته عيالا على تلاميذه ، غير مستكملة أدوات الفرق الجديرة بهذا الاسم ، وقد استطاع أن يؤلف فرقة محترفة ضمت العنصر النسائى ليقوم بالتمثيل بدلا من الرجال المتنكرين فى ثياب النساء ! .. فعثر على فتاتين فقيرتين ، وتمكن من تعليمهما بنفسه القراءة فى شهر واحد ، ومرنهما على التمثيل فأديا أول الأمر أدوارا قصـيرة خصصها لهما فى تمثيلياته ، وساعدهما على النجاح شباب نضر ووجه جميل وخفر نادر فى ذلك الزمان ، وقد كان لظهورهما على المسرح أحسن الأثر فى نفس الجمهور الذى استقبلهما بالتشجيع

والتأييد وأحاطهما بالرعاية الملحوظة فى اقباله على كل تمثيلية لهما فيها نصيب ..

ويجب أن يدخل فى اعتبار من يؤرخ للتمثيـــل العربى أثر البيئة فى التوجيه وفى النجاح أو الاخفاق ، فقد كان انشـاء مسرح عربى فى عهد اسماعيل مجازفة يتعرض فيها صاحبها لتزمت المتزمتين وخصومة الرجعيين ومحاربى البدع ، وماأعجبها من بدعة تصرف الناس عن العمل الصالح في عرفهم ! . وتبيح وقوف الأنثى الى جانب رجل تطارحه علانيه الغرام أو يطارحها الحب والهيام ! . لذلك يعتبر نجاح يعقوب في مسرحه انتصارا رائعا للفن وهزيمة مروعة لأهل الرجعة وهم كثيرون ..

ويقص أبو نظارة مدارج النصر التى نالها فى عمله ، فيذكر أن مسرحه ظل يعمل سنتين عرض فيهما على خشبته اثنتين وثلاثين تمثيلية من تأليفه ، منها الملهاة ذات الفصل الواحد والمأساة ذات الفصول الخمسة ، الى جانب كثير من التمثيليات التى ترجمت عن الفرنسية ، ثم يقول « وبعد مضى أربعة أشهر على تأسيس مسرحى ، دعانى الخديو اسماعيل وفرقتى لأمثـل على مسرحه الخاص فى القصر ، وقد مثلت ثلاث روايات وهي : « آنسة على الموضة » و « غندور مصر » و « الضرتان » وكانت كلها من نوع الملهاة الأخلاقية ، وبعد أن شاهد الملهاة الأولى والثانية اسـتدعانى وقال لى أمام وزرائه ورجال حاشـيته : « أنت موليرنا وسيخلد أسمك » بيد أنه عندما شاهد التمثيلية الثالثة « الضرتان » وكانت تعلن عن مساوىء تعدد الزوجات ، وانه بسبب التصدع الذى يحدث فى الأسرات بل سبب الجرائم التى تغشاها ، تحول سروره الى غضب وأرسل يطلبنى قائلا بلهجة تهكمية «سيدى موليير مصر ، ان كانت كليتاك لاتحتملان ارضاء أكثر من امرأة واحدة فلا تجعل الغير يفعل مثلك » ! .. وقد وجد رجال الحاشية كلام سيدهم فى محله فنصحونى بأن أشطب هذه التمثيلية من قائمتى على الرغم من تقديمى اياها للجمهور ثلاثا وخمسين مرة ، ولكننى اضطررت الى الرضـوخ ابقاء على حياة مسرحى » ..

كانت لفتات اسماعيل عاملا قويا من عوامل نجاح مسرح يعقوب بن صنوع ، فقد كان لقب « موليير مصر » الذى خلعه

عليه . يشبه من قريب براءة رتبة عاليه منحها له الخديو الكبير وكان للرتب فعل السحر فى نفوس عامة الناس وخاصتهم ، لذلك تجنب أبو نظارة غضب الأمير وأسقط من حسابه تمثيلية « الضرتان » ومضى قدما فى مسرحه موضع تقدير الرواد من كل طبقات الشعب ..

وبعد أكثر من مائتى عرض لمسرحياته طلب منه اسماعيل أن يمثل ثلاث قطع فى حفلة ساهرة كبرى ، وقد نال اعجاب الحاضرين وعلى رأسهم الخديو الذى صفق له، غير أن كبار الجالية الانجليزية الذين حضروا السهرة لاحظوا السخرية اللاذعة التى أطلقها كبير الممثلين على جون بول وهو يؤدى دوره على المسرح، فحفظوها له ومضوا بالدس عند الأمير حتى أقنعوه عن طريقهم المباشر أو عن طريق صنائعهم فى القصر بأن التمثيليات التى يقدمها أبو نظارة تتضمن تلميحات وايماءات خفية ضد سياسته وسياسة الحكومة ، وفيها خطر عاجل على نظام الحكم ومقدرات البلاد ، فأمر اسماعيل باغلاق المسرح ، وبدأ منذ ذلك العهد اضطهاد يعقوب بن صنوع ..

منشىء المسرح يعقوب بن صنوع وهو فى القاهرة ..

ويؤرخ معاصرو (أبو نظارة) لتمثيلياته وأهدافها ، وللدور الطبعى الذى أعد نفسه له ، فيذكرون أنه أنشأ المسرح العربى ليعبر به عما يختلج فى أعماق نفسه من انفعالات ، فأضحك الناس حين طرب قلبه ، وأبكاهم حين سالت دموعه الصادقة على

وجنتيه . وكانت ملاحظاته لاذعة وبعض مرحه ساخرا . وكان حين تنبض نفسه بالألم لما يراه من حياة مواطنيه البائسين الشاكين « يتقمص في جسمه جنسه الذى لا يحاكيه جنس فى العالم ، والذى تحمل فى ماضيه الطويل مختلف الاعتداءات واجتاز شتى العقبات والاضطهادات . ولكنه استطاع أن يعيش رغم ذلك وأن يحتفظ بكيانه دون تغيير أو تبديل » .. ويمثل ذلك كله على خشبة المسرح، فيعلن عن مواطنيه ومثلهم، ويحكى آما لهم وآلامهم ، حتى رأت الحكومة أن ضحكاته مثيرة للخواطر ودموعه مهيجة للأفكار ، فأغلقت مسرحه . وظنت أنها قد حبست لسان الرجل من أن ينطلق على خشبة المسرح . ونسيت أن له قلما سينطلق بعد قليل على مسرح الحياة ..

وقبل أن نسدل الستار على قصة الممثل الكبير نتركه يحدثنا عن الطرائف التى صادفته فى اثناء عمله المسرحى ، فهى ، وان تكن تفكهة لقارئها ، الا أنها عند المؤرخ شيء جدير بالتسجيل وهو يروى سيرة المسرح المصرى ، حتى يلاحظ المختصون على ضوئها التطورات التى حدثت لهذا الفن فى بلادنا ، ويزنوا المجهودات الضخمة التى انتهت بمسرحنا الى شيء قريب من النضج والاستواء ..

يذكر أبو نظارة أنه كان مديرا للمسرح ومؤلفا لتمثيلياته . وكان يقوم فى بعض الأحيان بمهمة الملقن ، وقد حدث أن تغيب الملقن فى احدى الليالى بسبب وعكة أصابته ، ولما كان المترجم له لايستطيع أن يقرأ فى تلك الظروف لضعف بصره الشديد فقد جاء بشاب وحدد له مكانه بين الكواليس ليلقن الممثلين ، وطلب اليه أن يقرأ الحوار بصوت منخفض ويترك الممثل يتبعه غير أنه لم ينفذ التعليمات حتى اضطرب الأمر على الممثلين وكادوا يعجزون عن أداء أدوارهم ، ولم يقف عجز الملقن عند هذا الحد بل أطل برأسه على المسرح وقال لأحد الممثلين « لا تسرع هكذا ألا تعلم أن العجلة من الشيطان ؟ . أتركنى ألقنك وكرر الكلام من بعدى » .. فانفجر الجمهور ضاحكا ! .. فما كان من يعقوب الا أن شد على أذنى الملقن الذى ضايقه ذلك . فانطلق مغتاظا الى المسرح « وقذف وجه الممثل المسكين بمخطوط التمثيلية ، ونشب عراك بين الرجلين ، واضطررت الى الظهور على المسرح

لأفض المعركة بين ضحكات الجمهور وتهليله » ..
ويعلق أبو نظارة على ذلك بقوله « ولو وقع هذا الحادث في أحد المسارح الأوروبية لاعتبر فضيحة من الفضائح ، أما في مسرحي الذي كان في ذاك الوقت في دور الطفولة فقد لقي الحادث نجاحا كبيرا ، وفي الليلة التالية أعلن الجمهور عن رغبته في مشاهدته مرة أخرى » ؟ !! ..
ويحكي الفنان المفتن ألوانا من القصص عما صادفه في عمله المسرحي ، وهو يصور لنا بساطة الشعب الذي كان يمثل له وبراءة سريرته وسماحة خلقه ، فقد كان النظارة يتدخلون في التأليف والتمثيل ! .. ويفرضون آراءهم على المؤلف رضي أو سخط ، وما كان له الا أن يرضى أو ينصرف عنه المعجبون من رواد مسرحه ، وهو يذكر على سبيل المثال أنه كتب عددا كبيرا من التمثيليات المضحكة وقدمها لمسرحه ، وكان معظمها يتألف من فصل واحد ، ثم رأى من واجبه أن يضمنها نصائح أخلاقية فألف لذلك الغرض تمثيلية من فصلين ، بطلتها فتاة لعوب عبثت بكثير من الرجال ، حتى ساءت سمعتها فهجرها جميع الناس وأصبحت وحيدة لا معين لها ، ولم يرض الجمهور عن هذه النهاية المؤلمة للممثلة ، وكانت فتاة قادرة حقا ـ بما أوتيت من جمال وفتنة ـ على انتزاع اعجاب النظارة على اختلاف مراتبهم وأسنانهم ، فاستقبلت التمثيلية بالصفير في اليوم الثاني ، فبرز يعقوب على المسرح مستوضحا أسباب غضب الرواد وصفيرهم ، فأجابه شاب قائلا « انت تعلم ياموليير أن صفصف ـ وهو اسم الممثلة ـ فتاة شريفة .. وينبغي اذن أن تجد لها زوجا جديرا بظرفها وجمالها .. عليك أن تخصص الفصل الأخير من تمثيليتك لزواجها ان أردت أن نصفق لك والا فأننا لن نختلف الى مسرحك أبدا » ويضطر المؤلف الى النزول على رغبة الجمهور فيزوج الفتاة اللعوب آخر الأمر وان خالف ذلك منطق الرواية والعبرة فيها !
ويؤكد لنا أبو نظارة أن مستوى المتفرجين ارتفع ارتفاعا ملحوظا في السنة التالية لانشاء مسرحه ، وأنهم كانوا يميلون الى الروايات الجدية ويستقبلونها استقبالا حسنا ، وتجاوب المؤلف والممثلون مع جمهورهم فقدم لهم تمثيليات مترجمة عن

اللغات الفرنسية والايطالية والانجليزية ، غير أن ذلك لم يمنع القوم من التقاط الهفوات وتسقطها وقلب المسرح من الجد الخالص الى هزل يتندر به الجيل جميعا .

ويضرب أبو نظارة مثلا على تلك الهفوات بأنه كلف احدى الممثلات بأن تقوم بدور الحبيبة الوالهة أمام ممثل كانت ـ على غير علم من يعقوب ـ تكرهه ولا تطيقه مع أن الممثل كان ولهان حقا حتى أنه طلب يدها فردته ساخطة ، واضطرت الممثلة الحسناء أن تقول فى التمثيلية أمام النظارة لذلك الممثل البغيض الى قلبها « اسأل نجوم السماء التى تحاكى جمالك عن سهادى .. انى أقضى الليالى لا أذوق طعم الراحة فأناجيها وأنا أفكر فيك .. يانور عينى الذى يعشقك قلبى وتعبدك روحى ! آه لو تعلم كم أنت عزيز على ؟ لن تسحر فتيات أخر بنظراتك الالهية وابتساماتك الملائكية . الرحمة الرحمة بعصفورتك ودعها تؤمل فى أن تكون عبدة حبك ! آه لو هجرتنى فلسوف أموت . ولكن لو انى كنت واثقة من زيارتك لقبرى لرجوت الله أن يسترد اليه روحى .. »

وحين استمع الممثل الى حديثها راقه التمثيل وأعجبته المعانى، فهمس اليها قائلا « ليبارك الله المسرح الذى يجعلك تتنازلين عن كبريائك ويضطرك الى أن تبوحى لى بحبك أمام آلاف الناس » وغاظها القائل والمقول فنسيت الممثلة أنها على المسرح ، ودفعها غضبها مما سمعت الى صفع الممثل المسكين صفعة قوية ! ثم التفتت الى الجمهور وقالت له فى غضب « ان كلمات الحب التى وجهتها لهذا الفتى المغرور الغبى لاتعبر عن احساسى الحقيقى نحوه فأنى أوثر العمى على حبه . ان مؤلف الرواية موليير مصر هو الذى وضع تلك الكلمات على لسانى » !

وذهل أبو نظارة مما شاهد وسمع . فقد وقفت التمثيلية ، وقام الممثلان برواية أخرى استقبلها الجمهور بالتصفيق الحاد ، فقد راقه حوار الممثلين وما تضمنه من مفارقات ، فلما استؤنف تمثيل الرواية طالبوا كما هى العادة فى التقاط الهفوات باعادة تمثيل هذا الفصل المضحك ، وقد أعيدت فعلا التمثيلية نحو شهر ولم تخل ليلة من صفعة يتلقاها الممثل من زميلته ويضحك لها الجمهور من أعماقه ، وبذلك خفت مرارة الممثلة وأصغت بالمودة الى زميلها ، وبلغ السرور من النظارة مداه والاعجاب بالممثلين

أقصاه حين علموا أن تمثيل هذا المنظر الدخيـــل قد قرب بين الخصمين حتى تلاقيا بعد شهر زوجين حبيبين ..

ويقتصد أبو نظارة في رواية النـوادر التي مرت بحيـــاته المسرحية ، ويرى أنها جديرة بكتاب ، ليته قام بتأليفـــه ! فما أحوج صناعة التمثيل في مصر الى سجل لتاريخها القديم ، وهو تاريخ نجهله ، وان كنت اليوم قد عرضت نشأته ، وهي نشأة قديمة ، وهي أقدم أو تكاد أن تكون أقدم من نشأة الصحافة الشعبية نفسها ، وحسبنا مارواه في هذا الشأن صحفينا الكبير يعقوب بن صنوع ، فقد ختم حديثه عن تلك النوادر بقصة طريفة ، فيها تصوير لخبث الخبثاء وسذاجة الساذجين .

قال وهو يحدثنا عن متاعبه انه عرض رواية (ليلى) لأول مرة على مسرحه « التياترو الوطني » وهي مأساة كتبها له صديقه الشيخ محمد عبد الفتاح ، وحضرها الوزراء وكثير من العـلماء والشعراء ، وكان في التمثيلية منظر لطاغية يقتل أولاد سـيد القبيلة الأربعة ، وكان في القاعة لحراستها شرطيان حديثا العهد بخدمة البوليس ، فانتهز أحد الخبثاء من المتفرجين تلك الفرصة وقال للشرطيين بصوت خفيض « أيرضيكما أن تقترف هذه الجرائم أمامكما ؟ » وما أن سمع الشرطيان الجاهلان هذا الكلام حتى قفزا الى خشبة المسرح وقبضا على الممثل الذى كان يقوم بدور الطاغية! « ودوت القاعة بقهقهة المتفرجين وتصفيقهم » وكانت تلك الحادثة منار التعليق في جميع الأوساط ؟!

ولم تقف الحوادث عند ذلك الحد ، فقد كان هناك بعض النظارة الذين لايخلو فصل من تعليقاتهم العلنية أثناء التمثيل ، وكانوا يوجهون كثيرا من الأسئلة والايحاءات الى الممثلين والممثـلات ، كأن يقولوا لأحدهم « سوف نرى ان كنت ستتركه يخطف منك محبوبتك » ؟ ثم يقولون لاحدى الممثلات « كيف تفضلين هـــذا الأهبل المتعجرف على هذا الشاب الغنى الوقور الذى يموت في حبك » ؟ وكان أبو نظارة يختفي وراء الكواليس ليلقن الممثلين اجاباتهم المناسبة على ملاحظات الجمهور ، وكان الحديث بين ممثلي فرقته وبين النظارة يطول أحيانا ، بل قلما كانت تنتهى تمثيلية له من غير أن يلبى طلب الجمهور ويظهر بنفسه على خشبة المسرح ويقول شيئا مضحكا وجديدا !

وقد أوحت هذه المتاعب الى المترجم له بأن يؤلف مسرحية ساخرة ينقد فيها أكثرها ممثلي فرقته وموظفي مسرحه ..

تلك قصة المسرح العربي المصرى فى نشأته وهى قصة فيهما شيء من السذاجة والبساطة الملحوظة ، غير أنها قصة تؤكد أن المسرح فى مصر لم ينشأ الا بين يدى مصرى ، وأن أحدامن البلاد العربية المجاورة لم يكن له فضل فى انشائه ، وهى قصة تؤكد أن هذا المسرح الساذج قد استطاع أن يباشر مهمة تعليمية كانت مصر تفتقدها بين أدوات التعليم الأخرى ، وهي قصة تؤكد أن صاحب المسرح كان ممثلا بطبعه ، فأن حياته ـ كما سنعرفها فى مصر والخارج ـ تمثيلية رائعة مروعة ، وهى قصة تبين أن المسرح قد رفع عن قلب الممثل الكبير غصة كانت حبيسة فيه بمامثل على مسرحه من أدوار تعلن بؤس البائسين وتروى حكاية الأحرار المتطلعين ، وتنقد مساخر العصر وتقاليده البالية وتفتح عينى الشعب خاصته وعامته ، وتبصره بما ينبغى عليه من واجبات ازاء الطغاة الظالمين .

لم يكن عجبا أن ينشأ فى مثل تلك الظروف مسرح (أبو نظارة) ولم يكن غريبا أن يضيق بمسرحه الخديو اسماعيل وتضيق به بطانته من رجال السوء ، انما العجيب الغريب حقا أن يرضى الخديو عن وجود هذا المسرح سنتين كاملتين ..

الأستاذ الأديب

كان اغلاق مسرح يعقوب بن صنوع مفرق الطريق في سياسته ازاء اسماعيل ، فان اغلاق المسرح بأمر الخديو أفقد المترجم له النخبة الواعية من أنصاره القريبين من القصر ، ولم يقف اضطهاده عند حد ، فقد أغلقت دونه أبواب الوظائف العامة وتعقبه المسئولون في الصحف القليلة التي كانت تصدر اذ ذاك ، وأشهروا عليه حربا عوانا حالت بينه وبين الكتابة فيها ، غير أن يعقوبا صمد للمحنة فلم يتطرق اليأس الى قلبه ، واتجه الى نشاط ثقافي وطني يلائم ذوقه وحسه ، فأسس جمعيتين علميتين أدبيتين ، سميت الأولى (محفل التقدم) وسميت الثانية (محفل محبي العلم) ، وانتخب لهما رئيسا ، وهما جمعيتان تعتبران في رأي البعض نواة للحزب الوطني القديم .

وكان أبو نظارة ، وزملاؤه من أعضاء الجمعيتين المبرزين يقومون بالقاء المحاضرات عن تقدم الآداب والعلوم في أوروبا ، وكان يحضر اجتماعاتهم ومحاضراتهم المسلمون والنصارى واليهود ، وبذلك خفت حدة العصبية الدينية ، وانهت الجمعيتان الفكرة السائدة لدى الأوروبيين من أن المصريين اذا اجتمعوا في ندوة أو اختلفوا الى ناد كان التعصب رائدهم وكراهية الأجانب ديدنهم ، فقد كان شيوخ الأزهر وأعلام الدينين الآخرين يساهمون فيما يلقى من محاضرات وخطب ، وكان المتحدثون جميعا يدعون للحكمة والاخاء بين الشعوب دون تمييز عنصري أو ديني ، وكانت الصحف المحلية تحتفل بنشر أخبار الجمعيتين مفصلة ، الأمر الذي مكن لهما في نفوس الكثيرين حتى أقبل عليهما طلبة الأزهر وكبار ضباط الجيش المصري ليغترفوا من منهلهما مبادىء الحرية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة .

ويحدثنا أبو نظارة عن المتاعب التي صادفته في هاتين الجمعيتين ودور الانجليز في القضاء عليهما فيقول « وكان تاريخ فرنسا وآدابها من الموضوعات الرئيسية لمحاضراتي مما ضايق الانجليز الذين كانوا يريدون أن ادعو لنفوذهم وأشجعه بين

آبناء وطنى · وقد انتقموا منى ·· ونجحوا بوسائلهم الوضيعة وبدسائسهم الرخيصة فى أن يلقوا فى روع الخديو اسماعيل أن هاتين الجمعيتين انما هما مركزان للثورة ، فما كان منه الا أن منع التلاميذ والطلبة والعلماء من حضور اجتماعاتنـــا ، واضطرت الجمعيتان الى اغلاق أبوابهما » وهكذا كبت اسماعيل المتنفس الثانى لابن صنوع فى سنة ١٨٧٤

قضى على المتنفس الأول وهو مسرحه الذى كان يعبر عـلى خشبته عن لواعج نفسه ، وقضى على الجمعيتين المذكورتين اللتين كان يختلف اليهما كثيرون من الساخطين المتبرمين، وظن اسماعيل أنه قد قضى على كل ناد للاحرار ، وأنه تغلب على المعارضة أفرادا وجماعات ، سواء عن « سوء هضم القهوة» للأفراد ! أو عن طريق اغلاق منتديات العلم والأدب ، وكان خصومه يخرجون من بيوتهم فلا يعودون ، ولا يدرى أحد مآلهم طال الزمن أو قصر · وكان الناس اذا تحدثوا برأى جديد أو نقدوا فكرة من أفكار الحاشية الطائشة نالهم من غضب الخديو الشيء الكثير ، وفى مقدمة ما نال معارضى اسماعيل مصادرة أملاكهم · ولم يسلم منهم حتى عمه حليم الذى صادر أملاكه ونفاه · وجعله بذلك قبلة الاحرار من المصريين ··

ولم يمنع الخوف أو الذعر والهلع عامة المصريين من التحدث عن الفساد الذى استشرى فى البلاد ، فكانوا يتسقطون الاخبار السياسية والاقتصادية من الأجانب المقيمين أو الوافدين · ويقبل بعضهم على قراءة تلك الأخبار فى صحف الفرنجة أو برقيات وكالات الأنباء وقد أصدر اسماعيل ـ لعلاج ذلك الموقف ـ أمرا بمنع طبع البرقيات التى تأتى من أوروبا وتترجم الى اللغة العربية ، ومع ذلك كله فان جماعة من الاحرار قد أخذوا عـلى عاتقهم اعداد ما تضمنته البرقيات وغيرها من مقالات الصحف الأجنبية الوافدة وترجمتها الى العربية ونسخها ثم توزيعهـــا على أوسع مدى مستطاع ، هذا الى أن أنصار الحزب الوطنى من الرعيل الأول عاودوا الاجتماعات سرا لتدارس الموقف وبث الدعايات المختلفة ضد الخديو وبطانته ·

مضى أبو نظارة مساهما فى ذلك كله ، عائلا لأمه وشقيقته ، محتملا مصاعب الحياة واضطهاد المسئولين ، لاينى عن الخطابة

والكتابة كلما استطاع الى ذلك سبيلا حتى هاجت أفعاله وأقواله غضب اسماعيل فقال « ان هذا المولير المعتوه بخطبه وأشعاره يفتح أعين رعاياى أكثر مما يجب ، وان لم أقض عليه فلن أستطيع الحكم ولن يطيعنى أحد » ..

ويبدو أن حدة الخلاف بين يعقوب بن صنوع والخديو اسماعيل خفت قليلا فى سنة ١٨٧٥ أى بعد غلق الجمعيتين الأدبيتين العلميتين بسنة واحدة ، وكانت هناك قلة فى الحاشية ترجو أن تستقيم الأمور للقصر ، ولايتمادى الأمير فى خصوماته لأهل الرأى وزعماء الفكر فى مصر ، وكان على رأس تلك القلة أديب أريب هو أحمد خيرى باشا « مكتوبجى الحضرة الخديوية الفخيمة »وهو من الرجال الممتازين المحيطين « بولى النعم » اسماعيل ، وتربطه بكثير من الأحرار صلات مصدرها الاعجاب المتبادل بالآراء الجديدة التى شغلت البلاد فى ذلك الوقت ، وقد عرفه الناس منذ أشرف على تحرير الوقائع المصرية فى سنة ١٨٦٥ فقد كان توجيهه لها دليلا ماديا على تفوق الرجل واعتدال مزاجه وبعد نظره فى جليل الأمور ..

استطاع خيرى باشا ـ وكان فى تلك السنة كبيرا لأمناء اسماعيل ـ أن يقنع الخديو بأن يعقوبا مواطن شريف جدير بتقدير الوطن ، وأنه رجع الصدى للنهضة الشاملة التى خلقها حكمه الزاهر ، وأنه قمين بثقة ولى الأمر ، وأصغى اسماعيل الى كبير أمنائه وشرط لعطفه على المترجم له أن يعتدل فى كتاباته وخطبه ، وخاصة تلك الخطب التى كان يلقيها فى المحافل الماسونية العربية التى ساهم يعقوب فى تأسيسها منذ سنة ١٨٦٥ ، ووعد خيرى أن ينفذ شروط اسماعيل مقابل الرضا على أبى نظارة وعمل على تحقيق هذا الرجاء بطرق عملية واضحة تقرب يعقوبا الى المسئولين وتعينه على الحياة .

ووقع خيرى باشا (المعاهدة) دون علم يعقوب ! ولم ينكر ابن صنوع انه رضي ماانتهى اليه أمر الوثيقة الشفوية بين الخديو وصديقه الحميم ، ويؤكد ذلك بفقرات مما كتبه عن تاريخه بقوله « ومنذ ذلك اليوم أخذت أقضى سهراتى فى قصر عابدين مقر الخديوية ، فتعرفت بجميع وزراء اسماعيل ، وقد كلفني معظمهم بتعليم أولادهم الفرنسية والانجليزيه . وهكذا عدت ابتداء من ذلك التاريخ الى ما كنت عليه من قبل ، أى شاعر البلاط ، وكنت أبعث بشعرى فى مناسبات الأفراح وأعياد الميلاد » .


احمد خيرى باشا

وعاد يعقوب بن صنوع الى ما كان عليه من قبل ، مادحا للبيت المالك ، مسجلا مديحه فى أشعار بعث بها فى المناسبات المختلفة ، غير أنه كان فى هذه العودة دارسا باحثا يتسقط الحوادث والأخبار ويستوضح مغالق السياسة التى انتهجها اسماعيل لشئون الداخل والخارج ، منتويا الشرح يحين وقته ، فكانت معاهدته التى أقرها بالنيابة عنه خيرى باشا معاهدة على دغل ، ويروى أبو نظارة نواياه فى قوله « فقد كنت أشاهد عن كثب جميع جرائم اسماعيل ، وان عشت فلسوف أنشر أفعاله الوحشية التى سترتعد لهولها فرائص العالم أجمع » .

ومضى يعقوب بن صنوع قريبا من القصر وعيونه ، يدرس كل مايدور حوله من خفايا حتى وجد انحراف الخديو انحرافا ظاهرا ، فقد تأكد منذ سنة ١٨٧٧ أن اسماعيل كان يلقى فى روع الشعب عن طريق عملائه فى الصحف وأعوانه فى الريف أن الضرائب المجحفة التى كان يفرضها على الفلاحين ، انما كان يضطر اليها ليتمكن من أن يسدد المبالغ الضخمة للأوروبيين ،

وهى المبالغ التى كان يحكم عليه بدفعها اثر محاكمـات ظالمة ،
وكان أبو نظارة ـ كما رأينـا فى تاريخه الطويل ـ يؤثر ود
الأجانب ويرجو ألاتسوء العلاقة بينهم وبين مواطنيه .

ولا أريد أن أحكم على (أبو نظارة) حكما جائرا فى نظره الى
هذا الأمر ، فأعيب ميوله نحو التخفيف من ضيق الشـعب
بالأوروبيين ، فقد يكون الرجل مؤمنا بأن هذا الضيق لن يؤتى
ثمرة يرجى من ورائها خير لوطنه ، كذلك لاأعيب عليه أبداتبرمه
بسياسة الخديو المالية ، فقد كانت سياسة جديرة بالحملة عليها
وتبصير الشعب بسوء المصير فيها ، وهكذا مضى الكاتب معلنا
تبرمه باسماعيل وثورته عليه ثورة كانت عدتها مقالات نشرت
له لم نعثر عليها ولم يشر هو الى مكانها بين صحف الجيل ، وانما
يؤكد المترجم له أنه هاجم ولى الأمر بحملة كتابية كلامية واسعة
النطاق « لأنه كان يبذر فى قلوبهم كراهيـة الأوروبيين »
فيبعث فى صدورهم نار التعصب التى كدت أنا وأصـدقائى
أعضاء الحزب الوطنى أن نطفى جذوتها » .

ويذكر أبو نظارة أنه استرسل فى خصومته لاسماعيل فذهب
الى المحافل يخطب ناقدا سياسته الماليـة واسرافه فى فرض
الضرائب » ويحكى أنه اختلف الى معظم صحف العصر فنشر
مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، وحذر مواطنيه اذا خطب أو
كتب من فكرة التعصب التى كان يوحى بها الخديو عن طريق
عملائه وأدواته الرسمية فى المدن والريف ، وترتب على موقف
يعقوب هذا أن خسر عطف اسماعيل مرة أخرى ، حتى انأبواب
المحافل والصحف أغلقت دونه ، وهددت بالعصف والتعطيلان
أعطت فرصة للكاتب الناقد بالخطابة أو التحرير .

ويروى لنا أبو نظارة أن اسماعيل انتقم منه انتقاما ماديا فى
الظروف العصيبة التى كان يمر بها المترجم له ، فقد كلفه فى
سنة ١٨٧٤ بالسفر الى أوروبا ، وقام بالرحلة تلبية لأمره ،
ولم يفصح الكاتب عن الأسباب التى دفعت الى هذا التكليف ،
ولا القصد منـه ، وانما يذكر أنه أدى المهمة على خـير ماتؤدى
المهمات الشبه رسمية ، وأنه حين عاد الى مصر عكف على كتابة
تقرير مفصل متضمنا أشياء كثيرة لم يشر اليها أبو نظارة وهو
يروى تاريخه ، ويبدو أن اسماعيل احتفظ بصورة التقرير عدة

سنوات ، فاذا غضب على صاحبه أبي عليه نشره في الصحف بل هدد الصحف بالاغلاق ان حاولت ذلك ، ولم يقف الأمر عند حد منع نشر التقرير بل ان الخديو أعدم المخطوط بحجة أنه تقرير ثوري ورفض أن يدفع تكاليف الرحلة وهي ثمانية آلاف فرنك ..

كان يعقوب يجتاز في تلك الفترة أزمة مالية حادة ، وزاد من أزمته أن رفض الخديو دفع تكاليف مهمته ، وغاظه آن يرى اسماعيل يبسط يده كل البسط لكثيرين من الصحفيين المصريين والأجانب ويقبضها دونه ، وكانت تلك الأزمة من العوامل التي دفعت بالمترجم له الى شن الحملة على الأمير بعنف ودون هوادة ، والتمس لها ألف سبيل لينتقم لنفسه ، وينتقم أيضا ـ كمايقول ـ للشعب الذي راضه اسماعيل على الذل وأخذ يضطهده بفرض الضرائب متعللا بمطالب الأجانب وأحكام محاكمهم .

لم يقف نشاط يعقوب لحظة في الحملة على اسماعيل ، بل قام هو مقام الصحف برواية كثير من فضائحه في المجتمعات المتباينة التي كان يختلف اليها ، وأحس خطر تلك الحملة شريف باشا وكان ناظرا لخارجية الخديو وممن يرون في يعقوب بن صنوع الرأي الحسن ، وعلم الباشا أن الحملة التي يقوم بها المترجم له قد تركت أثرا كبيرا في نفوس عامة الناس وخاصتهم ، فقد كان يعقوب معروفا للشعب جميعا ، وهو راوية يحسن الحديث في ندوة العلماء كما يحسنه في قهوات أبناء البلد ، فأشار شريف على الخديو بأن يصحح الوضع ويلتمس لهذا التصحيح وسيلة ترضي ابن صنوع فأجابه الخديو قائلا « ان لم يسكت هـذا المغرور فأني سأعرف كيف أسكته ، وان ضايقني أكثر مماينبغي فأني سأسحقه بين أصابعي كما يسحق البرغوث ! » وقدنقل لنا هذه الرواية أبو نظارة في تاريخه ، وسجلها حين قصها عليه شريف باشا قبل أن يمضي الى ربه بفترة قليلة .

ولما وجد أبو نظارة أن الصحف المصرية قد أوصدت أبوابها دونه ، قرر أن ينشيء هو الصحف على نفقته ويتولى القضايا التي كان يريد أن يتولاها بالعرض والتفصيل في الصحف المصرية ، واستند في الجولة الجديدة الى القنصلية الايطالية فنال حمايتها كما كان يصنع كثير من أحرار الصحفيين ، وبدأ نشاطه باصدار

صحيفة هزلية باللغة الفرنسية سماها (البعوضه) ثم أنشأ صحيفة أخرى باللغة الفرنسية سماها (النظارة) ، ثم أسس بعد ذلك صحيفة أصدرها بثماني لغات هي (الثرثار المصرى) وكانت هذه الصحيفة من أوسع صحف هذا العصر انتشاراً ولقيت رواجا في جميع الأوساط حتى تنبهت لها الحكومة فأصرت على اغلاقها ٠

وفجأة وجد يعقوب صنوع نفسه من غير قلم أو قرطاس ، واحتبست في صدره الأفكار والآراء ، وعز عليه أن يعبر عن أغراضه بأية وسيلة من الوسائل ، فرأى أصدقاؤه القريبون من القصر ، أو الذين لهم حظوة فيه أن ينصحوا له بأن يخفف من حدة هذه الخصومة ، بل طالبوه بأن يغير سياسته ازاء الخديو حتى يستطيع أن يعيش في فلك الأمير كما يجرى غيره من كبار الناس ، واستمع أبو نظارة الى نصحهم « واعتكف شهرين مظهرا ندمه « لولى النعم » على مابدر منه ، وكان ذلك وسيلته الوحيدة لرضاء اسماعيل ، هذا الرضاء الذى أذن له أن يعيش ، وأن تفسح له الدنيا مكانها ، وأن يحتل فى تاريخ الصحافة المصرية أعز مكان ، وأن يكون علما من أعلام النخبة المنتقاة من المصريين ،وأن يكون خصم البيت المالك اذا أخطأ وصديقه اذا أصاب وأن يحيا لكفاح الاستعمار الانجليزى فى مصر والسودان ، وأن يعلن عن مصر بأحسن مايعلن المواطن الحر الشريف عن بلاده ٠

هذا الرضاء قد أذن له بأن يصدر مجلة (أبو نظارة) ليحيا فيها يعقوب مابقى الكون وبقى فى الكون انسان ٠

أبو نظارة فى مصر

صدر العدد الأول من مجلة أبو نظارة فى ٢١ ربيع أول سنة ١٢٩٥ هـ بمدينة القاهرة ، وكان اسمها (أبو نظارة زرقاء) وتحت العنوان كتبت عبارة (جريدة مسليات ومضحكات)وليس في العالم كله فيما نعلم مكتبة عامة أوخاصة تحتفظ بالعددالاول من (أبونظارة زرقاء) ولا بالاعداد التالية التي صدرت فيمصر وعددها خمسة عشر عددا .

وقد حصلت على هذه الأعـــداد فى مخطوط كتبـه يعقوب صنوع صورة مطابقة كل المطابقة لما صدرت به تلك الأعـداد فى عهد اسماعيل ولكنها حرقت بأمرالطاغيةولم يحتفظ أحدبأى عدد منها . .

ويشير يعقوب صنوع الى الظروف التى أوحت باسم مجلته ، فيذكر أنه اجتمع طويلا بالسيد جمال الدين الافغاني والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده لاختيار الاسم المناسب ، وبالرغم منهذا الاجتماع الطويل فانه ترك بيت الأفغاني صفرا من أى اسم فأحاط به المكاريه (أصحاب الحمير) وكانكل واحد منهم يريد أن يختار يعقوب حماره ويقول « ده ياأبو نظارة » فأعجبهالنداء وقال لقد وجدت اسم الصحيفة .. وقد أعجب بهذا الاســم كثيرون من أصدقاء يعقوب ، فهو ينم عن معنى فان (أبانظارة) يومىء الى أنه رجل يرى من بعيد ، وفى ذلك مايعنى أنه رجل ملهم لاتفوته فائتة .

وقياسا على ماكان يتبعه الصحفيون فى ذلك العهد ، قدم يعقوب لصحيفته بافتتاحية تضمنت رسالتها وأهدافها ، وقد جاءت فى أسلوب ركيك وعبارة لعلها أضعف ماكتبــه يعقوب أسلوبا وعبارة سواء فى مصر أو فى أوروبا ، غير أن اهمــال الاشارة الى افتتاحية العــدد الأول لم يكن جائزا ونحن نؤرخ لأقدم الصحف الهزلية فى الشرق كله ، ونؤرخ لها من مجموعة خطية قد تضيع على مدى الزمن وتختفى فيها ذكريات رائعــة

لقد تحدث أبو نظارة كثيرا عن نفسه في هذه الافتتاحية ، وحدثنا عن أهدافها بما لا يخرج عما جاء في أعدادها التـالية وهو لن يتركنا في عدد من أعداد صحفه الا ويذكر لنا شيئا من ذكرياته ومشاهداته ، وسيمضي في ذلك نحو ثلاثين عاما ، فاذا فرغ من ذلك شغلنا بمحاوراته الفكاهية التي جرت بينه وبين « أبو خليل » أو « أبو الشكر » أو « الصدفجي » أو غير ذلك من الأسماء ، وأحيانا يختفي أبو نظارة من هذه المحاورات ويتركها على لسان آخر ، وكثيرا ماوجدنا « المستر بول » يحاور مصريا « كأبي الشكر » في موضوعات شغلت معظم الخمسة عشر عددا التي صدرت في مصر .

ثم كان يقدم في تلك الاعداد فصولا تمثيلية فيها نقد لحياتنا الاجتماعية ، ونقد لحياتنا السياسية ، وان كان في عرض هذا النقد الأخير متحرجا أشد التحرج ، حريصا أشد الحرص على ألا يسيء للخديو أو بطانته أو حكومته ، ومن هذه الفصـــول (القرداتي - لعبة تياترية حصلت في أيام الغز سنة ١٢٠٤) ومن أشخاص هذه « اللعبة التياترية » السنجق دبوس أغلو ، وسعد ، وبقلاوة أغا ، وشيخ الحارة .

ويريد يعقوب أن يصور بهذه المحاورات مدى الظلم والعبث بحياة الأفراد والجماعات في عهد اسماعيل وان أرجعها الى تاريخ سابق قديم ، ويريد أن يعطي صورة عن الحكومة التي تسيطر على شئون الناس ، وهذه اللعبة التياترية التي ضربنا بها مثلا تصور في منظرها الثاني ديوان السنجق دبوس أوغلو ، وفي حضرته الأشخاص الآخرون الذين أشرنا اليهم في الفقرة السابقة ، ان موضوع القضية يعني أن « سعدا » هذا سرق حمار المعاون ليدفع الضريبة ، وأن المعاون نفسه هو الذي حضه على السرقة والاحبسه وهو يقصد من ذلك تصوير الحياة المصرية بما فيها من مفاســد ، مفاسد أدوات الحكومة التي تطالب بالضريبة ولو عن طريق السرقة وهو - حتى ذلك الحديث - لم يهاجم رأس الحكومة بل هاجم أدواتها فقط ، ومن الحق علينا أن ننشر هنا الفصل الثاني كاملا حتى نعطي صورة طيبة لألوان هذه المحاورات « التياترية » وهي محاورات سيطرت على قلم يعقوب بن صنوع في معظم صحفه ، وفيها يعبر عن طبعه الغالب على حياته ، حيـاة المفتن الذي بدأ

ممثلا ، وكان يرجو أن يمضى فى مهنة التمثيــل ، فاذا أعجزته الظروف أجرى قلمه فى صحفه على طريقته التمثيلية التى تفرد بها ، وعز على آخرين أن يجاروه فيها .

نحن فى ديوان السنجق دبوس أوغلو .

قال السـنجق ـ كولوا (يعنى قولوا) انتم ياشـيك (ياشيخ) الحارة ، ماذا هصل فى كضية همار (يعنى قضية حمار) بقلاوة أغا . لـكن كولوا كلاما دوجريا (يعنى دوغريا) والا كطعتو رأسك .

قال شيخ الحارة ـ ياسيدسناجق الدنيا ـ يا أمير المؤمنين ـ يابطل ـ يا أسد ـ ياسيد الشجعان ..

قال سعد ـ ده السنجق مايحبش الكلام ده ـ احكى له الحكاية بكلمتين والا خلى المعاون يحكى .

قال السنجق ـ اهكى أنت يافرعون .

قال سعد ـ أنا ماسميش فرعون وحياتك . أنا اسمى سعد انما من يوم ماحكمتو بلادنا أنتم ياغز ، السعد شافنا وهرب .

قال السنجق ـ جلاد جال ياجلاد .

قال سعد ـ الجلاد ده صنعته إيه .

قال بقلاوه آغا ـ اكطفتوا رأس بتاع انت .

قال سعد ـ حليمتلو وشفقتلو (يعنى حلمك وشفقتك) ياجندى خلينى أولا أحكى لك قصتى وبعد اأمر جلادتلو افنـدى ينزع رأساتلو من كتافتلو (يعنى من كتفى) .

(السنجق يضحك ضحكة رطل) !!.

طيب ياقرادتجى اهكى كصة بتاع أنتم .

(سعد يقول فى نفسه) ـ والله الرطان نفع ، الكلمتين التركى رطبوا خاطر السنجق .

قال شيخ الحارة ـ يالله ياسـعد ياحبيبى ـ كلم سـعادة السنجق .

قال سعد ـ بقى المعاون ده اللى قدامك ياسيدى ، ده ثقيلتلو قوى ورزالتلو موش زى سعد أفندى خفيفتلو ولطافتلو ، لاده بيراضام جاته أضامه ـ قال لى روح اسرق وهات الفردة والا يافلاح وحيات راس الأمير .. (١) مراده يقول أحبسك ـ بس هو مايعرفش عربى . فخرجت أنا محتار فى أمرى ، وأولادى

١ ـ هنا لفظ يمنعنا الحياء من ذكره

الحمار والقرد والكلب بيبكوا ورايه ، وكان شيء يحزن قلب الكافر ياسنجق ، اسأل شيخ الحارة ، فرفعت عيني لأبي خيمة زرقاء ، وقلت له ــ يارب العباد يارحمن يارحيم اشفق على عبدك وخلصه من يد الظالم ده ، فضربت بعيني وشفت حماري الصغير بيبوس في حمار المعاون الحصاوي ، وماكانش لاجنبه لاسايس ولا خدام فركبته وبرطعت ياجندي على آخر سرعتــلو وأولادي ورايا ، فقابلنا ابن الحلال ، وكلمة منه وكلمة مني بعت له الحمار بخمسة محابيب ، فرجعت على المعاون حالا وأنافرحان وناولته واحد منهم وضربت الأربعة في شدقي ٠

قال السنجق ــ صحيح بوهكاية ٠

قال شيخ الحارة ــ وحياة راسك ــ صحيح ــ بعدماخرج سعد جاسايس المعاون يجرى وأخبرنا أن الحمار انسرق في غيــابه ولما زجع سعد ، بدون مانسأله أخبرنا بما حصل ٠

قال سعد ــ المعاون أمرني بالسرقة فسرقت واعترفت بذنبي ومن قر بذنبه غفر الله له ٠

قال السنجق ــ جلاد جال كطع راس بقلاوه أغا ٠

قال سعد ــ واحشيها لوز وسكر ٠

قال السنجق ــ وأنت ياسعد خلي عند أنت الأربعة محبوب ، وخذ كمان عشرة من خزنة بتاع احنا عليهم ٠

قال شيخ الحارة ــ آدي الانصــاف والا بلاش ــ ربنــا يطول عمرك يا أميرنا ٠٠

قال سعد ــ ايدك على دول ياسنجق لما ألطعها ، واجمعنا على العشرة محابيب خلينا نروح نفنتظ الليلة ونشد ، وانت يابقلاوه أغا دود الأرض رايح ياكل منك بقــلاوه وبلوظه ــ واخوانك المعاونين لما يسمعوا بآخرتك يفتحوا أعينهم تمانتاشر ولايظلموش العالم ٠

هذه صورة من محاورات (أبو نظارة زرقاء) تعطي فكرة عن الحياة العامة التي أراد أن يفضحها بطرقه الخاصة ، وتعطي أيضا فكرة عن حيــاة المواطنين اذا أصــابهم الرخاء ، وحســبنا شرحا لذلك قول سعد حين تناول المحابيب العشرة من السنجق ، فقد راح (يفنتظ ويشد) أي راح الى العبث الصارخ ومن بينه تناول الحشيش ، وهو علة المواطنين عمــالا وزراعا من قديم الزمان ٠

ثم يمضي يعقوب بعد ذلك في اعداده التالية حاملا على الفساد في (حكم قراقوش ـ لعبة تياترية حصلت في قبلي في أيام الغز سنة ١٢٠١ هـ) وأشخاصها « السنجق ظالم أوغلو وطرطور أغا القواص وأبو نفوسه شيخ البلد » وهو يبين لنا قسوة الضرائب المفروضة على الفلاحين ، حيث يطلب السنجق من أبي نفوسه شيخ البلد « العوايد والمال والفردة والاعانة والمكايلة والصخرة » (يقصد السخرة) فيرد أبو نفوسة قائلا « هو أنتو خليتو في البير بكرة وألا سلبة والتور وحياة السنجق بعناه بربع الثمن ـ بجا أجيب من الهوا المحابيب والعوايد والمجابلة والدواهي الحرة دى كلها اللي خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن » ثم يستمر الحوار على هذا الغرار عدة صفحات تروى مظالم العهد ـ عهد اسماعيل ـ وان كان الكاتب أخفاها تحت حجاب التاريخ القديم .

وتتطور سياسة الصحيفة رويدا رويدا ، فقد كان يعقوب الى نهاية العدد الخامس ينقد حاضره بنقد ماضيه ، ويحكي مايراه على لسان أشخاص مضى على زمانهم أكثر من أربعة أجيال وكان يصب النقد على أدوات الحكومة من موظفيها الأتراك ، وخاصة أولئك الذين كانوا يقومون بتحصيل الضرائب ، ولم يسفر قط في أعداد الصحيفة الأولى عن خصومته لاسماعيل ، ويناقض ما رأيناه في مخطوط الأعداد ماذكره عن نفسه في رواية تاريخه في مصر ، فقد قال « وفي العدد الرابع من صحيفتي أخذت أمدح التعليم الذي يبدد نوره ظلمات الجهل حيث يحرمه الطغاة على شعوبهم ليمعنوا في استغلالهم ـ وفي الاعداد التالية أخذت أبين فضائل الحرية التي هي ينبوع السلام والسعادة والنجاح ، وأحارب التعصب الديني بسلاح الاخاء ، وقد شجعني نجاح صحيفتي المتزايد ، وقد بلغ توزيعها آلاف النسخ في حين لم تكن أوسع الصحف انتشارا توزع في ذلك العهد أكثر من خمسمائة أو ستمائة نسخة ، فكشفت النقاب عن وجهي وهاجمت الخديو اسماعيل بشجاعة ، ذلك الحاكم الذي كان ينهب رعاياه بفرض الضرائب التي لاعداد لها ويقصم ظهورهم بالرسوم المجحفة .. وبينت حينئذ للمصريين أن الأوربيين عامة والفرنسيين خاصة هم أصدقاؤهم ، وأنهم يريدون أن يروهم سعداء ، وأن الدولة الغربية الوحيدة التي تطمع في مصر هي بريطانيا العظمى

التى منذ بداية هذا القرن تنظر الى بلادنا لأن احتلالها يضمن طريق الهند » .

يذكر أبو نظارة أنه بدأ سياسته تلك منذ العدد الرابع من صحيفته ومن يتصفح ذلك العدد يجد انه قد بالغ فيما سجله عن تاريخه في تلك الفترة ، فالعدد الرابع احتوى على محاورة بين (أبى خليل وأبى نظارة) واللعبة التياترية التى نشر ناظرفا منها وهى الخاصة بسعد القرداتى ، ثم محاورة بين (الصدفجى وأبو نظارة) وليس فى هذا كله مدح للتعليم وان كانت فيـــه ايماءات الى ألوان الظلم الذى يغشى حيـــاة المصريين ، ثم بالغ أبو نظارة فزعم أنه كان يوزع منها عدة آلاف بينما يذكر فى العدد السادس وهو يحاوز (أباخليل) أنه يطبع نحو ألفى نسخة فقط قائلا ردا على سؤال أبى خليل عن حاله « ماشى زى الحلاوة . ينطبع منه ييجى الفين نسخة كل نمرة — دى الناس راغبة له قوى ولو أنه حاجة هلس ! »

ولم تكن أبو نظارة زرقاء شيئا « هلسا » كما يتواضع صاحبها فيذكر ذلك فى أكثر من موضع ، بل كانت شيئا جديدا كل الجدة فى حياة المصريين وصحافتهم ، وكانت لسانا يعبر عن عواطفهم ويقص مآسى العهد بطريقة قريبة التناول سريعة الهضم ، وقد أخذت رسالتها تنضج تماما منذ عددها السادس حيث أعلن المحرر عن ضيق الأمراء بصحيفته ولا أقول الخديو اسماعيل ، وان كانت المعانى التى نشرها تحمل فى طياتها السخرية به ، استمع الى المحاورة بين (أبو خليل وأبو نظارة) عن مقام المجلة وخطرها وماتركته فى نفوس البعض ، قال أبو خليل : « هلس ايه ياسيدى ، ده عين الجد ، والحكومة لازم تكون مبسوطة منه ، بيورى للأهالى الظلم اللى كان حاصل فى أيام الغز والعـــدل والانصاف اللى حاصل فى عصر ملك مصرنا الحليم الشفوق اللى بيحب الرعايا كأولاده العزاز كما ترى » فيرد أبو نظارة بقـوله « انما بعض الأمراء ماهمش فاهمين الأمر ده — ربنـــا يظهر الحق » .

ومنذ طلع العدد السادس على قرائه ، والصحيفة تعبر تعبيرا سليما عن الساخطين البرمين بالحكم وأساليبـــه ، الناعين على الانجليز تصرفاتهم وتدخلهم فى شئون البـــلاد تدخلا يسىء الى

كرامتها وحريتها وعدالتها واستقلالها ، وهو حين يتحدث عن الظلم والظلمة فكأنه يرسم صورة ممتعة للخديو اسماعيل وحكومته ، ومع ذلك يبعد المظنة عنه بقوله فى آخر كل محاورة « يارب العالمين احفظ لنا عزيز مصر لكونه يحب عبادك ويسعى في سعدهم » .

ثم انظر كيف يسجل يعقوب بن صنوع ماكان يجرى به الهمس من أن اسماعيل اذا غضب على صاحب أو صديق دعاه الى قصره وقدم اليه فنجانا مخلوطا بالسم فيخر صريعا عند عودته الى بيته ، ويعز على أسرته أن تعرف أسباب ذلك الموت المفاجىء .

قال أبو الشكر ـ يامرحبا بك يابو نظارة .
قال أبو العنين ـ تفضل أقعد ياعم وانجلى .
قال خلاط ـ تريد تشرب ايه .
قال أبو الشكر ـ أبو نظارة قتيل البيرة .
قال أبو العنين ـ لا الراجل يحب القهوة .
قال أبو نظارة ـ لا ياخويا ـ القهوة ماأحبهاش لأنها مخطرة فى الأيام دى واللى بيشرب منها فنجان بيبرم .

واذن فقد بدأ أبو نظارة يتجاوز حدوده ، وهى الحدود التى ماكان لصحفى أن يتجاوزها والا تعرض للشر وعرض صحيفته للخطر ، والحديث فى مثل موضوع القهوة ، وهى من الشائعات التى تقرب من الحقائق فى عصر اسماعيل ، أمر خطير ، وخاصة اذا سجل فى صحيفة سيارة يأنس اليها العامة قبل الخاصة ، والشائعات حقائق عند الانسان العادى اذا طبعت فى كتاب أو مقال ، لأن المطبوع له أثره فى النفوس فى كل زمان ومكان ..

لم يكن خطر مجلة (أبو نظارة زرقاء) كامنا فى فكاهاتها ومحاوراتها والجديد الذى احتوت عليه أو الغريب الذى لم تشهده صحافة مصر والشرق العربى ، بل كان خطرها فى أسلوبها ، ولا أعنى الأسلوب العامى وان كان هو الأسلوب الغالب على صفحاتها جميعا ، بل أسلوبها الذى تضمن عدة لغات ولهجات ، فأنت تقرأ فيها لغة عربية سليمة أو عامية لطيفة ، كما تقرأ لغة تركية فى بعض ألفاظ وجمل يعرفها المعاصرون وتقرأ أحيانا

اللهجة الشآمية وحوارها الممتع ، كما تجد أحيانا أخرى عبارات فرنجية تعبر عن مقتضى الحال تعبيرا صادقا ، فهي من حيث وسائل التأثير متعددة الجوانب في تلك اللغات واللهجات التي يستطيع أن يقرأها المصريون والعرب والترك ، هذا الى أن المحرر تمكن من عرض النكتة أو الملاحظة وجعل في خدمته العبارة العامية أو العربية أو الشآمية ، الى آخر ماكان يقدمه لنا من نكات مأثورة عن الفرنجة أو العرب .

ومجمل القول ان يعقوب بن صنوع قد بدأ ينزل الى ميدان السياسة سافرا بعد عدة أعداد من مجلته ، ولم يتورع عن مهاجمة الوزراء والأمراء والخديو بأسلوب ساخر فيه التواء ، فرأيناه يحدثنا في عنف وشدة عن اضطهاد كاستلي « اللي لولا هو من تحت وربنا من فوق ماكنت فلحت في جريدتي » وكاستلي هذا — كما يحدثنا تاريخ الصحافة المصرية — صحفي أجنبي صاحب مطبعة كانت في خدمة أكثر من جريدة ومجلة ، ولقي في عهد اسماعيل شيئا من الاضطهاد الملحوظ ، مع أنه يكاد يكون مواطنا مصريا اذ أمضى في مصر نحو خمسين عاما في هذا الميدان ، وفي هذه الفقرة التي جاء فيها ذكر كاستلي حمل أبو نظارة حملة شعواء على الحكومة بمناسبة النظر في الدين ومشاكله وموقف « الديانة » من حاجات البلاد حتى قيل أن الصحيفة قد « أمر بقفلها » كما سجل المحرر ذلك عقب الاشاعة التي انطلقت بهذا في كل مكان .

وقد مضى يعقوب في نقد الحياة السياسية وخاصة في محاوراته المختلفة ، ولم يتعرض في أعداد الصحيفة للخديو الا بالثناء في غير موجب للثناء ! كأنه يسخر « بولي النعم » لأنه كان يتعمد ذكره بالدعاء والتكريم في مواقف لايمكن أن تصلح لتكريمه أو الدعاء له ! غير أنه بدأ يهاجمه تحت اسم محجب هو « شيخ الحارة » يتمثل في شخصيته الظلم والجور ، ويقول فيه على لسان (الحدق) كلاما يدعو للثورة « وساكتين عليه ليه . اشتكوه وقدموا فيه عرضحالات لشيخ التمن اللي هو أكبر منه ويقدر يعزله » وشيخ (التمن) هنا هو الخليفة كما حدثتنا صحف يعقوب حين تحررت من الخوف والفزع وصدرت في باريس من غير رقيب .

وهكذا وضحت سياسة (أبو نظارة زرقاء) عند الحكومة المصرية، فقد أصبح الأشخاص فيها ـ وان كانت أسماؤهم محجبة ـ واضحة للمسئولين . فشيخ الحارة هو الخديو ، وأبو الغلب هو الفلاح المصرى ، وكريم حليم ، يقصد بها الأمير حليم عم الخديو والسيد الحبيب القريب الى قلب يعقوب وسائر المصريين، وهكذا أطلق الأسماء والالقاب التى تخفى تحتها كثيرا من المعانى المفزعة لحكومة مطلقة السلطان فضلا عن تعرض الكاتب للسياسة الانجليزية فى مصر تعرضا جعل العلاقات المصرية الانجليزية فى خطر ، وجاء العدد الأخير ينبىء عن موقف الصحيفة وصاحبها فقد أحس أبو نظارة بقسوة الحكومة واضطهادها له ، حتى أنه سجل هذا المعنى فى رده على (أبو خليل) حين سأله عن صحة ما أشيع عن سفره للخارج فقال له « أعمل ايه هنا - بس أسمع كلام بارد يغم القلب أدينى ضحكت اخوانى بخمستاشر نمرة وعشمى أنهم ماينسونيش لكونى محب لهم وأفديهم بالروح »

وهكذا عبر يعقوب بن صنوع عن واقع حاله فى تلك الكلمات القصار التى ذكرها فى العدد الخامس عشر ، وهى كلمات فيها من الصدق الشيء الكثير ، فقد كانت مجلته صوتا رقيقا حينا وصوتا مدويا حينا آخر ، كانت صوتا رقيقا بما احتوت عليه من نكات وفكاهات وصور باسمه وأزجال لطيفة وبيان للحياة الاجتماعية بمباهجها ومفاتنها ، وكانت صوتا مدويا بمااشتملت عليه من رواية الحقائق السياسية المرة وعرض لمساوىء الحكم ومظالم الأمراء والموظفين ، وتبصير للمواطنين بحقوقهم ، وتشجيعهم على الجأر بالشكوى ان لم يستطيعوا الثورة على الظالمين ..

نفي صنوع

لم ترض حكومة اسماعيل عن المعاني التي تميزت بها أعداد صحيفة يعقوب الأخيرة ، وهي الاعداد التي سفر فيها وأعلن رأيه بوضوح وجلاء ، وهو رأي جزع له الخديو وبطانته ، وخافه المسئولون في حكومته ، فقرروا اغلاق الصحيفة والتخلص من صاحبها بنفيه خارج البلاد .

ولكن .. كيف صرعت أبو نظارة ؟ وكيف نفي الكاتب الكبير؟

لهذه الواقعة أكثر من وجه ، فالذي يقصه علينا التاريخ ، يبين أن يعقوب بن صنوع كان محتميا بقنصلية ايطاليا ، وهو من تلاميذ المدرسة الايطالية حيث تلقى في بعثته اليها دروسه الأولى في الفنون والموسيقى ، وكان محتميا بتلك القنصلية ليستطيع اصدار صحيفته والتنفيس عن لواعج نفسه بما يكتب فيها من مقالات ومحاورات دون أن تعصف به سلطة من السلطات المصرية كما عصفت من قبل ومن بعد بكثير من أعلام الصحافة الاحرار الذين أبوا أن يحتموا بقنصلية من القنصليات ، ولم يكن أبو نظارة وحده الذي طرق باب هذه الحماية بل طرق هذا الباب غيره من زملائه الوطنيين ، ومن بينهم جماعة من المتطرفين ، احتموا بقنصليات فرنسا وايطاليا وروسيا وانجلترا وغيرها ، يستوي في ذلك المصريون أو المتمصرون من أبناء الشام الذين وفدوا على البلاد واتخذوا من الصحافة حرفة لهم وصناعة .

وقد قيل ان الخديو تدخل عند قنصل ايطاليا وانتزع منه الموافقة على اغلاق الصحيفة وطرد صاحبها من مصر ، ويقول بول دوبنير وهو كاتب فرنسي ، ومن جرى في فلكه من الكتاب الفرنجة الذين كتبوا عن المترجم له ، ان (أبو نظارة) نصح له أصدقاؤه القريبون من السلطان بالسفر من مصر ، كما نصحوه بأن يحترس من تناول القهوة الخديوية ! فأجاب محذريه قائلا بكل هدوء « لو انتظرت حتى أتذوق القهوة الخديوية لسبق السيف العزل .. فيجب اذن آن أغادر البلاد » وهذه رواية صورت مآسي العصر وأشارت الى الضيق الذي كان فيه

كاتبنا ، وبينت الخطر المحدق به ، وأوضحت أن لصحفينا أصدقاء كانوا حريصين على حياته ويدخرونه لمستقبل الأيام .

وليعقوب فى تاريخه الذى كتبه بنفسه حديث آخر ، يصور اضطراب الحاكم والمحكوم ، اضطراب الحاكم من الرأى الحر والفكرة الجديدة ، واضطراب المحكوم من وسائل القضاء على ذلك الرأى وتلك الفكرة ، فقد عمد اسماعيل الى قتل خصومه بشتى الطرق وفى ذلك يحكى يعقوب شيئا يشبه القصص فيقول « .. وكان أن لفت قنصل انجلترا نظر الخديو اسماعيل رحمه الله الى تلك المقالات المشبعة بروح الود نحو فرنسا والتى تفيض بكراهية بريطانيا ، وأقنعه بالتخلص منى بأية طريقة من الطرق وامتثل اسماعيل لنصح ممثل انجلترا الخائنة » ..

ثم يبين المترجم له كيف امتثل اسماعيل لهذا الممثل الدبلوماسى وأنه كان امتثالا على طريقة الخديو التى اتبعها فى التخلص من خصومه ! فقد كان النصح يتجاوب مع شعور الأمير ويتلاءم مع طبيعته ، أما الطريقة فقد اختص بها اسماعيل بين أقرانه ، ويذكر أبو نظارة وسيلة الخديو وطريقته بقوله « وبينما كنت أتنزه فى شبرا مساء أحد أيام مايو سنة ١٨٧٨ خارج مدينة القاهرة بصحبة عجوز فرنسى اسمه الكابيتين جيرار ، انقض على أحد زبانية الخديو وطعننى بسكين ، فسقطت على الأرض بينما جرى الكابيتين جيرار خلف الطاعن وهو ينادى رجال الشرطة ليقبضوا عليه ، بيد أن رجال الشرطة تركوه يهرب حسب التعليمات ، ولحسن الحظ أصاب السكين الجزء الفولاذى من حزامى ولم أصب الا بخدش نزف منه الدم » .

ويؤكد يعقوب هذه الحقائق بقوله بعد ذلك « ولما فشلت تلك المحاولة تلتها أخرى ، فبينما كنت أقرع باب منزلى حوالى منتصف الليل دوى صوت طلق نارى ومرت الرصاصة على بعد سنتمتر واحد من رأسى . ان الثقب الكبير الذى تركته فى الباب مازال موجودا . وكان الجمهور حسب المعتقدات الشرقية ، يقول انى أحمل حجابا يحمينى من الأسلحة » وهكذا فشلت محاولة قتل المترجم له للمرة الثانية ، ورأى اسماعيل أن يسلك طريقا أخرى ، ويعالج الأمر علاجا يختلف عن الوسيلة الأولى قبل أن يأمر بالغاء صحيفة (أبو نظارة زرقاء) وهى الصحيفة التى سببت

كما يقول يعقوب « عدة فتن فى الصعيد ضد مبعوثيه الذين كانوا يدفعون السكان قهرا الى بيع مواشيهم وأراضيهم ليسددوا المبالغ المطالبين بدفعها ظلما » فأرسل فى الليلة السابقة على الغاء الصحيفة كبير أمنائه خيرى باشا ، وقد خف الى ابن صنوع فى ساعة متأخرة من الليل متخفيا وكان يعقوب نائما فأيقظوه للقاء رسول الأمير ·

ويمضى يعقوب بن صنوع فى رواية تاريخه الذى سجله بنفسه فى أواخر القرن الماضى ، مبينا لنا الطريقة الأخرى التى اتبعها اسماعيل للقضاء على الصحفى الكبير « وقال لى ضيفى الكريم ، لقد جئت لأراك ياموليير ــ وكانوا ينادونى هكذا فى ذلك الوقت ــ وان ذكرت لى أسماء الوزراء الذين أعطوك الاسرار التى نشرتها فى العدد الأخير من صحيفتك ، أعطك بيدى أربعة آلاف جنيه · أنت تعلم أنى خير صديق لك ، ولن يعرف أحد ماحدث بيننا ، ويستمر صدور صحيفتك ، أما ان تماديت فى عنادك ، فان الخديو بواسطة بوليسه السرى الذكى سيجد المذنبين ، وانتقاما منك فان سموه سيقول انك أنت الذى وشيت بهم فيذلك دون فائدة » ·

وساء يعقوبا هذا العرض الصغير من الرجل الخطير الذى له فى نفسه مكانة الاعتبار والتقدير « فقمت حينئذ دون أن أفوه بكلمة وأوصلت خيرى باشا الى الباب وقلت له وأنا أودعه : قل لاسماعيل ان كان هو خائنا فأنا لست كذلك ، وان كنوز العالم كلها لاتساوى ظل شرفى » ويروى أبو نظارة أن صديقه الحبيب الى قلبه خيرى باشا تأثر أشد التأثر فدمعت عيناه وضمه الى صدره ثم قبله وقال « الحمد لله سيد الكون الذى وضع فى طريقى رجلا شريفا ومواطنا صالحا مثلك · أرجو أن يحذو أبناء مصر حذوك فيجعلوا الطاغية الذى يظلمهم يرتجف أمامهم » ثم اختفى خيرى باشا فى سرعة ملحوظة دون أن يترك فرصة للمترجم ليعبر له عن الأثر الطيب الذى تركته كلمات الباشا فى نفسه ·

وغضب اسماعيل غضبا شديدا لأنفة واحد من رعاياه ، فأمر بالقاء القبض على بائعى (أبو نظارة زرقاء) ثم أشيع فى العاصمة أن محرر الصحيفة وجد صريعا فى سريره ·· ويمضى أبو نظارة فى حكاية قصته قائلا « ويبدو لى أن الخديو أمر خيرى باشا أن

يحضر الى مع أحد زبانيته ليقتلني فى حالة رفضى خيـــانة من وثقوا بى » .

« وأعتقد أن خبرى قال لسيده العظيم أنه وجدني محاطا بعدد من الأصدقاء . وقد اضطرب الشـــعب لخبر موتى ، وخشى اسماعيل العاقبة فأمر بظهورى فى المدينة لتهدئة الجماهير » .

وكان للاشاعة التى أطلقت عن مقتل أبى نظارة فى سريره أثرها الخطير فى نفوس العامة والخاصة على السواء ، فقد كانت سمعة اسماعيل كقاتل وظالم وناهب تطبق الآفاق ، وكانت كل اشاعة عنه تلقى من يصدقها بين الناس وان كانت مكذوبة جملة وتفصيلا ، غير أن هذه السمعة أثارت حفيظة الكثيرين ، وفى ذلك يقول يعقوب « وبعد ذلك ببضعة أيام طلب الى عدد كبير من الضباط وهم من تلاميذى القدماء ، أن أسير على رأسهم وأن أهاجم قصر عابدين لانقاذ مصر من خديويها القاتل . فقلت لهم انكم بذلك تخدمون انجلترا ولها قطعتان حربيتان فى زيارة ثغر الاسكندرية ولن تلبث أن تأمر جنودها بالنزول الى البر . وينذر أن يترك الانجليز البلد الذى يحتلونه ، بدعوة اعادة النظام الى ربوعه » .

ويبين لنا أبو نظارة تفاصيل مافعله الخديو اسماعيل لطرده من مصر ، والأسباب التى من أجلها لم يتمكن من قتله جهـارا وفى وضح النهار فيقول « ولما كنت فى حماية الماسونية التى كان يخشاها الخديو اسماعيل كثيرا ، وفى رعاية جميع القناصـــل الأوروبيين الذين كانوا يتلقون عـلى دروس اللغـــة العربيـة فان مضطهدى ــ أى اسماعيل ــ لم يكن فى استطاعته قتلى ، ولكن بوصفه خديو مصر كان فى مقدوره أن ينفينى . ذلك مافعله بعد أن أفقدنى ، بغضبه على ، كل تلاميذى ، وقد ذهب الى حد منعهم من دفع ماعليهم لى ، فلم يكن ينتظرنى فى وطنى بعد ذلك سوى الفقر ، أما فى الخارج فقد يبتسم لى القدر ثانية ، وهكذا يممت وجهى شطر المنفى » .

ان يعقوب بن صنوع يروى قصة نفيه فى بساطة ووضوح ، ويميل بى الخاطر الى تصديق كثير من تفاصيلها ، وان كنت أعتقد أنه بالغ فيما بعد فى وصف وداعه وحزن الشعب له ، وأجمل مافى هذه القصة الدقائق التى سجلها صاحبها ، فهو

لايعرض فيها قصته مع الخديو وحده ، بل يمضى بنا الى أشخاص آخرين ماكان يدور بخلدنا أن لهم به هذه الصلات الوثيقة ، فهو مثلا يتحدث عن الشيخ البكرى ونصيبه فى هذا الموضوع فيقول « وكان الشيخ البكرى ، وهو من السلالة النبوية ، يعطف على عطفا أبويا . وقبل أن أغادر مسقط رأسى الذى شاهدت فيه سعادتى وتعاستى ، ذهبت لأقبل يد هذا القديس وأطلب بركته فقال لى : كل انسان طيره ـ أى قدره ـ مربوط الى عنقه . عليك يابنى أن تسير فى الطريق الذى رسمه لك ولاتخف شيئا . ان الله رب العدالة والخير الذى دافعت به عن المؤمنين ، معرضا نفسك للقتل ، سوف يحمى خطواتك أينما ذهبت » ثم يعلق أبو نظارة على كلمات الشيخ الوقور بقوله « وقد بعثت كلماته الودية وتمنياته الصادقة جذوة الأمل فى نفسى ، ولم أكن أعتقد أن مدة ابعادى سوف تكون طويلة » .

ويحسن بنا ونحن نختم هذا الفصل عن سيرة يعقوب بن صنوع فى مصر أن نأذن له بكتابة سطوره الأخيرة دون أن نقتحم عليه تفكيره أو دون أن نعترض سبيله غير أن من واجب المؤرخ أن يذكر فى هذا الصدد رأيه فيما نسبه الصحفى الثائر الى نفسه من مبالغات ، وما نراه فى السطور التالية لايخلو ـ فى رأيى ـ من المبالغة ، وان كان فى مجمله يصور الحقائق الأصيلة فى هذا التاريخ ..

قال أبو نظارة فى تاريخه الذى كتبه فى أواخر القرن الماضى ولم ينشر بعد « وهكذا غادرت القاهرة محبوبتى فى الثانى والعشرين من يونية سنة ١٨٧٨ ، ولن أتكلم عن وداع والدتى العجوز المؤثر ، وكانت قد بلغت الثانية والسبعين من عمرها . وقالت لى قبلة أخرى أيها الابن الحبيب . انها بلا شك ستكون الأخيرة لأنى لن أراك بعد اليوم ، وكان حديثها لسوء الحظ صادقا ، فقد توفيت فى سنة ١٨٨٥ ولكن بعد أن سعدت بنبأ زواجى وانتظارى مولودا ، وقد قيل لى انها باركتنى قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة » .

« ويقول من كتب قصة حياتى من الوطنيين أن أيام سفرى من القاهرة والاسكندرية كانت حدثا وطنيا ، فقد كانت الجماهير مضطربة على غير عادتها ، ولكن الذى أثر فى نفسى حتى اغرورقت

عيناى بالدموع هو وصول القطار الى المحطات التى تقع بين القاهرة والاسكندرية حيث كان يقف بين الخمس والعشر دقائق، فكانت النساء تحضر الفاكهة ويرفعن أولادهن الى نافذة العربة لكى أباركهم . وكان الفلاحون يصيحون « لاتسافر وتتركنا بين مخالب شيخ الحارة » وهو الاسم الذى أطلقته على الخديو اسماعيل .

« ولما بلغت الاسكندرية نزلت في ضيافة صديقي البير ماير الذى عرفته فى فينا . وقد أعادت الى الأيام التى قضيتها عنده جأشى الذى كنت قد أفتقدته بافتراقى عن أهلى وأصدقائى . وفى التاسع والعشرين من يونية رجانى مواطنى المصريون أن أتوجه الى تمثال محمد على الكبير الكائن فى ميدان القناصل لأتقبل وداع الشعب » .

« ان ذلك المنظر المؤثر لن يمحوه كر الأيام . وامام عيون جواسيس اسماعيل أخذ سكان المدينة من رجال وسيدات أغنياء وفقراء ، يمرون أمامي صامتين محيين متمنين لى السعادة بصوت خفيض وفي اليوم التالى حوالى الظهر ركبت السفينة الفرنسية « فريسنينيه » التى أقلعت بى الى مارسيليا . لقد كان المشهد جليلا . وقد أراد الخديو أن يرانى بنفسه وأنا أغادر البلاد فمر راكبا عربته وقد أحاط به حراسه ، في الوقت الذى نزلت فيه الى الزورق الذى سينقلنى الى السفينة . ولم تجرؤ الجماهير على الهتاف بـ « يسقط اسماعيل » لكثرة عدد رجال الشرطة ، فأخذت تصيح « ليحيى أبو نظارة » وتعالت النداءات بعد ذلك « نريد نبوءة منك أيها الشيخ » . وأعترف أننى احترت فيما يجب أن أقوله . ولكنى شعرت كأن وحيا ألهمنى ووضع فى فمي تلك العبارة : سوف ينفى اسماعيل بعد سنة كما أنفى أنا اليوم » ..

« وقد شاءت المصادفات أن تتحقق نبوءتي حرفيا مما جعل الناس في الشرق كله يلقبوننى بالولى ولكن لنعد ثانية الى سفرى فقد هبت علينا عاصفة كادت تودى بسفينتنا ، غير أن الله لبي رجاء شعب مصر المظلوم بأن يحفظنى ، وبلغت مرسيليا سليما صحيحا ، غنيـــا بالآمال لا بالمال . ان سر نجاحى فى الماضى والحاضر هو ثقتى التى لاتتزعزع فى العناية الالهية » .

هذا هو ختام سيرة يعقوب بن صنوع فى بلاده ، وهذه هى

قصته منذ نشأ حتى نفي ، لم أر فيهامايستحق التعليق الاختامها المشحون بالمبالغة كما أشرت الى ذلك فى أكثر من موضـــع ، وحسبنا هذا الجزء الأخير دليلا على صدق رأينا ، فقد زعم المترجم له أن الناس خرجوا لوداعه رجالا ونساء من جميع الطبقات ، وما أظن أن السيدات فى سنة ١٨٧٨ كان فى مقدورهن الخروج الى الميادين والشوارع فى مظاهرة أو شبه مظاهرة ، وقد نسى تقاليد بلاده والحريم الثقيل الذى يفرض حجابا غليظا يحول بين لقاء الرجال والنساء ولو كان ذلك فى وداع صحفينا الكبير !! وقد أكد هذه المبالغة فى أكثر من موضع فى « رحلة أبى نظارة زرقاء » ..

ثم تبدو المبالغة واضحة اذا دققنا فى روايته عن وداع الناس له فى « ميدان القناصل » قبيل سفره بيوم أمام عيون اسماعيل من الجواسيس ، فقد ذكر أن الناس حيوا بصوت خفيض خشية آذان أولئك العيون ، ثم ذكر لنا أن اليوم التـالى كان حافلا فهتف الناس له بحضور اسماعيل ، وما أظن أن القوم الذين يخشون عيون الأمير لايخشون الأمير نفسه ! وربما تخيــل الرجل قدره ، وأنه كان جديرا بهذا الوداع سواء فى ميدان القناصل أو قبيل نزوله الى السفين ..

وقد أيد وجهة نظرنا هذه بول دوبنيير فقال عنه « ان موليير مصر خلق لنفسه دورا لايخلو منه الزهو والغرور ، ويبعث على الاعتقاد بأن صنوع هو وحده قائد الحركة وواضعها والمتنبىء بحوادثها ، وهذه كلها أقوال لاتخلو من المغالاة والمبالغة التى تكثر عند الكتاب والتى ينبغى ألا نعيرها كبير اهتمام ، وهى على أى حال تكثر عند الغربيين والشرقيين على السواء ، فقد رأينـا اسكندر ديماس ينسب لنفسه قيام ثورة يوليو ولامارتين مقتنعا كل الاقتناع بأنه قائد ثورة فبراير ، فليس هنـاك اذن مايدعو للوم صنوع على اعتقاده الساذج بأنه وحده صاحب الثـــورة المصرية ، وكيف لايساوره هذا الاعتقاد وقد أخذت صحف مالية كبرى وعلى رأسها جريدة (الاصلاح المالى) تشـــيد بمقالاته الوطنية الساخرة وتعلق عليها أهمية كبرى لم تكن تخطر له على بال » .

هذا رأى بول دوبنيير . وهو رأى وجيه جدير بالنظر والاعتبار

لذلك وجب علينا ونحن نصور حياته من قلمه أن نؤكد هذا الرأى وان كان هذا الرأى قد كتبه صاحبه ويعقوب في باريس، وعندى أن المترجم له ، معذور فى تخيلاته التى سجلنا طرفا منها وهو يحكى عن سيرته مع الخديو اسماعيل ، معـــذور لأن القوم فى أوروبا اعتقدوا فيه إعتقادا جاوز الحــــد ، وهو جدير بهـــذه الثقة وذلك الاعتقاد لأنه كان ممتازا اذا تحدث أو كتب شعرا أو نثرا كما كان دارسا القضية المصرية دراسة عميقة أصيلة ، ويعقوب معذور اذا بالغ وهو يروى حكايته بعد أن لقى من المدح والثناء غايتهما .

ومن أسباب المبالغة فى تصوير حياته أقوال الصحف عنه ، ومن بينها صحيفة « الاصلاح المالى » المذكورة فقد كتبت عنــه قائلة « هل لنا أن نقدم الى قرائنا ذلك الرجل الذى خدم بمفرده أصحاب رءوس الأموال المصرية أكثر من مراقبى الدين بالاشتراك مع أعضاء لجنة التحقيق وجميع صحفيى أوروبا » ثم تسـتطرد الجريدة فى روايتها الطريفة « وقد يبدو أن هذا القول فيه شىء من المغالاة غير أنه فى الواقع صادق كل الصدق ، فقد نشر صنوع جريدة « أبو نظارة » وأخذ ينبه المظلومين فى مصر الى أن اسماعيل انما يرهقهم بالضرائب لا ليرضى مطالب الاوروبيين وانما ليزيد من ثروته » ..

« وقد أدرك الغرب كل ذلك وشعر الفلاحون بأن حقـــدهم للأوروبيين قد فتر ليزداد حيال الخديو ، وقد تحدث يعقوب صنوع الى المصريين بذلك الأسلوب التصويرى المعروف عن الشرق فأيقظهم من سباتهم بعـــد أن كانت كواهلهم مثقلة بالضرائب ، وكان جزاء « أبو نظارة » على ذلك الطرد من البلاد والانتقال الى فرنسا لمواصلة جهوده فى سبيل مصر » .

واذن فهناك مبررات للزهو والغرور والمبالغة ، منها أقوال الصحيفة المذكورة وهى تقدمه للناس ، ولم تكن جريدة (الاصلاح المالى) وحدها التى خلقت هذه المبررات بل ساهمت معها أكثر من صحيفة وأكثر من كاتب وأديب ، فلا تثريب على أبى نظارة حين يبالغ ويتخيل الشعب فى وداعه نساء ورجالا ، يهتفون له بالرغم من وجود الخديو القاسى العنيف وعيونه من الجنود الغلاظ ، غير أن ذلك الزهو وتلك المبالغة لايسقطان من اعتبار يعقــوب

ابن صنوع ، فقد كان الرجل فعلا من رعيل الاحرارالأول الذين ذاقوا الأمرين فى سبيل حرية بلادهم ونصفة مواطنيهم ، وان كثيرا من التفاصيل التى رواها فى تاريخهالمخطوط ، لهاأصولها فى مجلته المطبوعة فى مصر ، تجدها موزعة فى الاعداد الخمسة عشر النادرة التى لايحتفظ بها انسان ، والتى أسعدنى الطالع بالحصول عليهـــا مكتوبة بخط يده ، وكان ذلك أمرا بعيـــد المنال ..

ومهما يكن من أمر فنحن نختم فى هذه السطور سيرة يعقوب ابن صنوع فى مصر وهى فترة قصيرة من نشاط الممثل الكبير والصحفى الخطير ، عرضناها فى بسطة من الرواية اذ جمعنا فيها كل شاردة وواردة عن طفولته وصدر شبابه ، متحررين فيما رويناه من ضغط الظروف والملابسات .

الى منفى الأحرار

الى باريس ...

حط أبو نظارة رحاله فى باريس عاصمة العالم المتحضر ، وعاصمة الأحرار المنفيين من الشرق والغرب ، وهى ملجأ أولئك الأحرار فى كل زمان ، وملاذهم اذا لفظهم حاكم مستبد أو كرههم شعب ثائر ، وهى لاتقبض صدرها ـ واحيانا يدها ـ اذا لجأ اليها صاحب فكرة ، مهما يكن أمر هذه الفكرة ، فالحضارة الفرنسية لاتخاصم صاحب رأى رجعى فزع اليها ، او صاحب رأى تقدمى ارتمى فى أحضانها ، هى مفتوحة الصدر لكل من يغذ السير اليها ، يجد عندها السلوى ويجد فيها أدوات الكفاح من أجل الرأى ميسرة ، ويجد عندها العمل فى أى ناحيـة من نواحى العمل ، ويجد عندها أهم من هذا كله ، يجد الحرية التى لاتعرف الحدود أو القيود ، فينطلق يعبر عن خوالج نفسه بالطريقة التى تعجبه وبالأسلوب الذى يرضاه ، يجد نفسه فى محيط ولد الناس فيه أحرارا ، ليس لأحد فضل على احد ، فكل امرىء صاحب فضل ، له ان يعلن فضله بوسيلته الخاصة دون رقيب أو حسيب ..

وقد هاجر صاحب فضل الى منفى الأحرار ..

هاجر يعقوب بن صنوع الى فرنسا ، فلم يكن له متنفس الا فيها ، فوصل الى باريس لايملك مالا ، فقد كان مايحمله من المال مائتى فرنك فقط ، وانما كانت نفسه تضطرب بشتى الأمانى والآمال ، كمواطن حر صمم على محاربة الظلم فى بلاده واعلان سوءات حكومته ، ومكافحة الاستعمار الذى بدأ يطل على وادى النيل ، على طريقته الخاصة التى اتبعها أخيرا فى القاهرة ، وهى نشر صحيفته ، وبذلك يصل ماانقطع ، يعبر فيها عن رأى الحزب الوطنى المصرى الذى بدأ يتكون وتبين معالمه لكل ذى عينين ، لايخاف أميرا أو طاغية أوجندا أوقهوة مسممة أو نهرا استمتعت تماسيحه بأجسام كثير من الاحرار ! ..

ذهب « الولى » الى عاصمة النور فى صيف ١٨٧٨ طريدا من

بلاده ، شهيدا من شهداء الحرية فى عصر اسماعيل ، فقيرا لولا الحياء لكان التسول مهنته فى الشهور الأولى ، غير أنه قاوم الفقر ومذلة السؤال ، وقد كان يلقى نخبة من المصريين الأغنياء المقيمين فى باريس بعيدا عن وادى النيل ومايجرى فيه من أحداث ، وكان هؤلاء المواطنون يعطفون عليه ، ويدعونه الى الغداء والعشاء برا به وعطفا عليه ، وكان يصيبه من هذا العطف والبر حرج شديد ، حتى استطاع أن يحصل على عمل ، وهو عمل المعلم الذى يدرس لتلاميذه اللغة العربية ويحصل مقابل ذلك على قدر من المال يسد به رمقه ويعينه على تهيئة الجو المناسب لمعاودة الكفاح من أجل مصر .



من صور يعقوب فى أوائل عهده بباريس

لقد كسب يعقوب المعركة الأولى فى باريس بالعمل كمدرس، وبصحبة نخبة منتقاة من الشرقيين والمصريين ومن رجال الفكر الفرنسيين الذين أطلقوا عليه لقب « المنفى المصرى » وعاونوه معاونة صادقة ، ويبصرنا بأيامه الأولى بول دوبنيير فى كتابه « مصر الساخرة » .

فيذكر أنه كان لشخصية صنوع أثرها الفعال فى التمكين له من الحياة والنصر على متاعبها، فهو كما يقول معاصروه ، شاعر بكل ماتحتوى عليه هذه الكلمة من معان تتجاوز قرض الشعر وروايته ، فهو ماهر فى تصرفه مع الناس على اختلاف

ألوانهم ودرجاتهم ، قوى القلب والشكيمة حتى ان النفى لم يسقط اعتباره كما أن مرارة الغربة لم تقتل نوازع الخير فيه ، ولم يكن من طراز تلك النفوس الفارغة التى تلجئها المحنة الى الانفراد والانطواء ، استنادا الى خيبة أمل اصابتها أو جراح نفسية ألمت بها ، بل كان أبو نظارة على نقيض ذلك يطب لحياته بأسلوب تفرد به ، فكان يمتاز بروح مرحة تفيض سرورا اذا صادفتها مباهج الحياة ، ولا تشكو أو تئن اذا أصابتها صروف الدهر بسوء ..

ان يعقوب بن صنوع يواجه فى باريس حياة جديدة عليه كل الجدة ، وكان يواجه تلك الحياة بما انطوت عليه من خير وشر بنفس الابتسامة الهادئة المنطبعة على محياه ، لقد لقى حقا ظروفا قاسية فى وطنه الجديد من حيث النواحى المادية ، ولكنه تغلب عليها بالجد والاجتهاد والنشاط منقطع النظير ، وهما من صفاته وخلائقه التى توائم طبعه المكافح العنيف ، لذلك لم تكن حياته فى باريس أمر مذاقا من حياة القاهرة أو أكثر شدة من حيث الخصوم والاعداء ، بل كان الأمر على النقيض ، فقد كانت حياة تنفس فيها حرا طليقا بين صفوة من أحرار الفرنسيين .

وجد أبو نظارة وسائل العيش قريبة التناول على ضفتى السين كما كان يلقاها ميسرة فى معظم أيام حياته على ضفتى النيل ، فقام بالتدريس لكثير من الناس الدروس المختلفة الألوان التى كان يلقيها فى باريس كما كان يلقيها فى القاهرة ، بل أنه وسع نطاق تلك الدروس ، فأخذ يدرس حتى علوم الحساب والرسم والفلك ، وهى علوم كان يجهلها فى مصر ، ولم يفكر قط فى تدريسها لمن كان يدرس لهم من الأمراء وغيرهم ، غير أنه فى عاصمة النور أكب هو نفسه على دراسة هذه المواد ليستعين بها على اعطاء الدروس فيها لمن يشاؤها ، ولم يكن عدد الدروس بالطبع كثيرا كما كانت الحال فى القاهرة ، ولم يجد بين تلاميذه أغنياء كأولاد الأمراء والباشوات ، ولكن سوقه راجت تماما فى تدريس اللغة العربية لمن يريد دراستها وكان يعتبر عمله هذا عملا وطنيا فيه شرف له حين يكتب التاريخ ، فأخذ يدرس مبادىء تلك اللغة للضباط الذين يتهيأون للسفر الى افريقية ، والى أبناء التجار المزمعين الرحيل

الى السنغال حيث يحتاج النازحون الى تلك الجهات الى فهم اللغة العربية حتى تستقيم لهم الحياة هناك ، كما أنه قام بتدريس اللغة الفرنسية لمن يريد تعلمها من أبناء العرب النازلـــين في باريس ، وقد تخصص هذا المصرى فى هذه الناحية من النشاط وكان يعلن عن نفسه وعن تخصصه ذاك بكل وسيلة ، واحتفظت صحفه جميعا في سنواتها الأولى باعلان مستمر الظهور فى كل عدد منها عن استعداده لالقاء الدروس لمن يشاء ..

تلك كانت وسيلته لكسب العيش الحلال فى أيام المنفى الاولى فقد بدأ تاريخه في باريس معلما للغات ، واشتهر فى جميـــع الأوساط ، واستطاع بلباقته وقدرته فى اللغة الفرنسية وآدابها أن يوثق علاقاته بكثير من أهل الرأى ويؤكد أواصر الود مع نخبة من رجال السياسة مختلفى المذاهب والآراء ، ويقيم هذه الصلات القوية بين الخصوم والأضداد ، ويلقى منهم جميعــا الاحترام اللائق بمواطن حر غريب عن بلاده يسعى فى سبيل شرفها وكرامتها ، ويلتمس لهذا السعى كل وسيلة مشروعة يلجأ اليها الأحرار ..

وقد يخرج يعقوب بن صنوع من حفلة عشاء عند روشفور فيذهب مباشرة وبكل هدوء ودون أن يشعر بأى حرج الى قصر الأليزيه (قصر رئيس الجمهورية) لحضور حفلة رقص يقيمها الرئيس « جرفى » ، وكان المترجم له موضع اعجاب وتقـدير المسيو دوفريسينيه وخصمه المسيو كليمنصر على حد سواء ، وكان من ناحيتــه مؤمنا بكليهما ، مخلصـــا لشخصيهما دون مواربة أو رياء ، وان صداقته (لناكيه) داعية الطلاق لم تمنعه من مصادقة جيل سيمون عدو الطلاق اللدود ، وكان صاحبنا معجبا بفيكتور هيجو اعجابا لا تقف دونه الحدود أو السدود ، بيد أن هذا الاعجاب بالكاتب الكبير لم يحل بينه وبين اعجاب آخر لخصوم هيجو ومنافسيه من أمثال ريشوبان وكلوفيس هيج .

وليس يعنى اتصال يعقوب بن صنوع بأقطاب الجمهوريين أنه خصم عنيف للملكية ، لقد كان نفسه من المؤمنين بفكرة الجمهورية وصلاحيتها لحكم الناس ، غير أن ذلك لايمنعه من الولوج الى الدوائر الملكية يتعرف على زعمائها ويود صحفييها ، لايفرق بين أنصارها المتنابذين ، فهو صديق لدعاة أسرة (أورليان) كما

أنه صديق لدعاة أسرة (بونابرت) ، وكان جناحا الملكية المذكوران يرحبان (بالمنفى المصرى) ترحيبا ملحوظا ويحسنان وفادته ، ومما يؤكد ذلك أن جريدة الفيجارو كانت تفرد مكانا فى ادارتها لعرض رسوم (أبو نظارة) الرائعة ليشاهدها الفرنسيون ويتعرفوا عن طريقها رسالة الطريد الحرفى عاصمة النور ويقفوا على تطور الأزمة المصرية فى عالم السياسة الدولية ..

ومن الأدلة على تكريم الأوساط الملكية له ماكتبته عنه جريدة (لوجولوا) حيث قالت « من ذا الذى يجهل أبا نضارة ذلك المصرى الذى لقبه الخديو اسماعيل بموليير اللغة العربية . انه يعقوب بن صنوع الذى أسس جريدة شعبية عربية » ثم تستطرد الصحيفة قائلة « تراه أحيانا مهاجما لاذعا وهو دائما خفيف الروح ، لقد اضطر الى مهاجرة القاهرة والمجىء الى باريس **للاستمرار فى المهمة التى ندب لها نفسه .. انه المعبر عن رأى الحزب الوطنى .. انه أول من قال العبارة الآتية التى أخذت طريقها الى الامام وهى عبارة ، مصر للمصريين .. »**

ومما يذكر ليعقوب بن صنوع أنه كان داعية لمصر فى جميع الأوساط الفرنسية ، وفى محافل أوروبا أيضا ، فقد كان ينتقل بين تلك الدوائر ، جمهورية وملكية ، يؤم مجتمعاتها ويحضر بحوثها ويلقى فيها محاضراته وماكتبه من الشعر الفرنسى ، ويترجم لها الرسائل الأخيرة الواردة اليه من مصر ، ويكتب فى صحفها المختلفة ، وتنشر له تلك الصحف أحاديث طريفة يذكر فيها بلاده أحسن الذكر ، استمع الى ماكتبه عنه المسيو جيهان سودان الكاتب الفرنسى ومحرر جريدة « هنرى الرابع » التى كانت تصدر فى باريس اذ ذاك .

يتحدث المحرر عن يعقوب بن صنوع فيقول « لقد أبدى الجميع فى أوروبا من انجليز وفرنسيين وألمان وغيرهم رأيهم عن الأزمة المصرية ، فمن غير المعقول أن أذهب فأطلب الى أحد المصريين أن يبدى رأيه فى تلك المسألة .. بدهى أن آراءه فى مثل هذا الموضوع ستكون آراء معكوسة » ..

ثم يقول « اننى قابلت هذا الزميل الذى جاء من بلاد بعيدة ، فياله من رجل شيطان ! .. انه يرتجل الشعر الفرنسى .. وقد استقبلنى بعبارات ترحيب منمقة حسنة الاسلوب لاتخلو

من الدعابة ، فقد وجـــد من الطبيعى ـ واســمى ـ سودان ـ أننى أردت معرفة شىء عن مسألة السودان » !

« أخذ أبو نظارة يقلب صفحات مجموعة صحيفته ، ويشرح مابها من صور وترجم لى بعض فقراتها ·· انها مجموعة غريبة حقا فهى تحاكى فى آن واحد جريدة لا لانترن دوروشـــفور وجريدة دوبوكيـــون حيث تبـــدو الصور الشرقية كأنهـــا مقتبسة من أشعار النبى (أرميـــا) أو من أوصـــاف النبى (حزقيال) ··

« فسواء شعرا أو نثرا ، وسواء توسلا أو رجاء ، فهودائما يشكو آلام الفلاح ويعرب عن آماله فى أن تسود الســـعادة والرخاء أرض مصر المباركة » ··

« لقد سألت أبا نظارة رأيه فى الأزمة الحالية قائلا : هل حقا يستطيع المصريون أن يكونوا شعبا ؟ فقال لى مامعناه ـ يالكم من قوم عجب أيها الاوروبيون ـ انكم ترسلون مندوبين أو ثلاثةمن الظرفاء فينزلون القاهرة ولايلبثون أن يرسلوا مذكرات عن مصر يصفونها حسب أهوائهم كأنها قطعـة أوبريت ·· واذا قرأتم مايكتبون صحتم قائلين : هذه هى مصر وأولئك هم المصريون ، انها بلاد الرخاء ، يسكنها للأسف أناس كسالى متعصـــبون وجهلة ، أما أنا فأقول لك ان الشعب المصرى ليس كسولا بل هو على نقيض ذلك أنشط شعوب العالم طرا وأوفرها انتاجا ، ليس الشعب المصرى متعصبا بل هو على عكس ذلك أكثرشعوب العالم تسامحا على شريطة ألا يستفز أكثر من اللازم ، والتاريخ على ذلك شهيد ، وأخيرا أقول ان الشـــعب المصرى ليس عـــلى درجة الجهل التى تتخيلونها ، فالمدارس المدنية والدينية التى أسستها الحكومة ، ومدارس القاهرة الحربية وخاصة مدرســـة أركان الحرب ليست بدائية كما يظن الباريسيون الظرفاء » ·

ولايقف الداعية الكبير عند هذا الحد من الاشادة بوطنه فى أدق الظروف وأقسى المحن ، بل يمضى قائلا للمحرر « ألافاعلموا أن الكتب المدرسية المستعملة فى مدارس مصر مترجمة حرفيامن

أهم الكتب التي تدرس في المدارس المماثلة في باريس وولوتش وبرلين ، بل أكثر من ذلك فان تراجم روائع الأدب الفرنسي منتشرة في مصر كانتشار أصولها في فرنسا ، وجميع تلاميذ القاهرة والاسكندرية يحفظون عن ظهر قلب حكايات لافونتين ، بل ذرف جميع الشبان الدموع عندما قرءوا قصة الحب البائس لبول وفرجيني (وهي قصة مشهورة) كما بكوا عندما قرءوارواية البؤساء ، وأخيرا فأن قصة الفرسان الثلاثة ليس لهـا معجبون أفضل من الشبان المصريين ، وعندما أسست المسرح في القاهرة جاءني في أسبوع واحد ثلاث تراجم لكي أمثلها على خشبته وهي تراجم « البخيل ، والمريض بالوهم ، وترتوف » ..

ويستطرد المحرر (سودان) متحدثا عن آراء يعقوب بن صنوع في بلاده التي يحن اليها دائما ولم يخف قط هذا الحنين ، ذاكرا أن المترجم له يعتقد أنه « **لاينقص الشعب المصري سوى زعيم** جدير به ، وهـــذا الزعيم ــ في رأي يعقوب ــ هو الأمير حليم أصغر أبناء محمد علي رأس الأسرة العلوية ، وقد وضعت مصر الفتاة في شخصه كل آمالها وأمانيها » وكان هذا الرأي أشبه بالعقيدة يبشر بها أبو نظارة منذ كان في مصر الى يوم تولى عباس الثاني ومات حليم ، حتى أن صحف (أبو نظارة) المختلفة كانت تردد هذه الأمنية وتذكر دائما أن ربنا «كريم وحليم » ، وحليم هنا هو الأمير حليم مناط يعقوب وأمل أصدقائه في تغيير شـامل يصيب الأريكة الخديوية ويرفع الظلم عن كواهل المصريين .

ولم يتردد أبو نظارة في اشاعة فكرة تولية الأمير حليم لعرش مصر عند جميع الجهات ، يرددها ليسمعها الفرنسيون في باريس والأوروبيون في كل مكان نزله يعقوب كاتبا أو خطيبا ، ويروى لنا ذلك المسيو مارتان المحرر والرسام بصحيفة (ايللستراسيون) الجمهورية الكبرى ، فقد صرح له يعقوب بأنه لايرى حلا للثورة القائمة في مصر ــ أيام توفيق ــ سوى اعتلاء حليم لعرش البلاد ، مبينا الأسباب الموجبة لذلك ، وهي أسباب عرضنا لها من قبل وسوف نعرض لها على شتى الوجوه .

انتزع الداعية الكبير والصحفي الموهوب ثقة واعجاب أهل الرأى فى فرنسا فقد كان يعقوب جديرا بهذه الثقة قمينا بهذا الاعجاب ، فهو فنان يجيد الموسيقى وخاصة العزف على « الصفارة » كما كان ينظم الشعر ، والشعر الفرنسى خاصة ، وكانت له لفتات ذهن فى قرض هذا الشعر سجلها له « سودان » فى حديثه الذى الذى ختمه بقوله « ولست



البرنس حليم أمل المصريين
فى عهدى اسماعيل وتوفيق

أدرى ان كان مقدرا لصنوع أن يكسب القضيه التى يدافع عنها أم لا .. ولذلك فلست هنا بصدد مدحه أو قدحه .. غير أننا لانلتقى كثيرا برجل مثل « أبو نظارة » له طابع مستقل قائم بذاته ، وعزيمة لاتعرف الوهن أو الهزيمة » ..

***

هذا رأى الفرنسيين فيه حين نزل بلادهم ولم يمض عليه الا القليل من الزمن ، استطاع فى تلك الفترة القصيرة أن يقيم الدنيا ويقعدها ، ولم يقف نشاطه كداعية كريم عند العاصمة الفرنسية ، بل كانت له فى أقاليم فرنسا جولات ، بل كانت له فى بلدان أوروبا سيرة طيبة ، هى سيرة المصرى الحر الذى ندب نفسه للدفاع عن وطنه ومقدراته ، واستحق من الوطن ــ على الأقل ــ تكريم الذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين ، والمؤمنون هم المصريون الذين قلما يذكرون محن كرام مواطنيهم ، ولايستعيدون أمجاد هؤلاء المواطنين الذين احترقوا على بعد المزار فى سبيل فكرة الحرية والاستقلال لبلادهم .

ومهما يكن من أمر فأن يعقوب بن صنوع لم يقف نشاطه على الصحافة والعمل فيها ، بل استغل (أبو نظارة) مواهبه فى سبيل بلاده ، فقد كان رجلا واعيا دارسا فاهما لحياة الأمم

والشعوب : كما كان واسع الأفق دقيق الملاحظة « شاعرا صادق الشاعرية » فيه نواح « من الجمال الحق وصفحات سامية ذات قيمة وجديرة بأن تلفت النظر » هذه الصفات التي خلعها عليه معاصروه الأجانب قد استغلها المترجم له في السعي وراء مصالح بلاده في حقول أخرى غير الصحافة ، فخطب وحاضر حتى هز الرأى العام الأوروبى ، ومن روائع محاضراته محاضرته عن مصر فى القرن التاسع عشر ومحاضرته عن الغزوة الانجليزية لبلاده ، ومحاضرته عن المهدى واخلاء السودان ، وقد ألقى تلك المحاضرات فى أقاليم فرنسا ودول أوروبا المختلفة ..

وكما لقى يعقوب من صحافة باريس التمجيد والتأييد ، كذلك لقى مثلهما من صحف الدول والاقاليم التى زارها داعيا لبلاده فيها، فقالت عنه جريدة (لاجازيت دوبوردو) بعد أن وصفت شكله ومتاعب عينيه « وقد أصدر صحفا ساخرة كانت تطعن خصمه بمقالاتها اللاذعة ، وقد اشترك فى جميع الحملات التى شنت على الخديو السابق .. وخلاصة القول فيه انه قد أثار العجب بين جميع الذين استمعوا اليه لسعة ادراكه وشدة ذكائه » .

ومضى الداعية المصرى من رحلته فى الأقاليم الفرنسية الى زيارة البلدان الأوروبية فخف الى اسبانيا وقابل ملكها وملكتها وأنشد فيهما القصائد ، وتحدث عن وطنه فى كل فرصة أتيحت له ، ثم اختلف الى بلجيكا ، وهناك خطب وكتب ، وذكرته الصحف أحسن الذكر ، ثم انتقل الى انجلترا ، وهى خصمه العتيد وعدو بلاده الأصيل ، انتقل اليها غازيا بمحاضراته وكتاباته ، وتكاد جميع الصحف الانجليزية تحسن استقباله فتقول احداها عن زيارته « نرى اليوم بيننا صاحب جريدة عربية ساخرة مصورة تناوىء الخديو السابق وسياسته ، وابنه توفيق وضعفه .. » وتتحدث عنه (ذاديلى نيوز) فتقول « ان أبا نظارة يثير الانتباه من نواح عدة .. » وتأخذ الصحف الأخرى فى تقديم بعض المختارات من إنتاج الصحفى المصرى الساخر ، وتنشر جريدة (ذا تروث) بعض صوره الكاريكاتورية وتعلق عليها تعليقا طويلا ممتدحة الكاتب وما كتب ، معجبة بالمصور وما رسم ..

وهكذا مضى المترجم له فى زيارة دول أوروبا ، لم يترك دولة منها ، الا وزارها رسولا ضد انجلترا وفعالها

فى مصر أو السودان ، حتى ألب الرأى العام الأوروبى عليها فى كثير من الظروف والمناسبات ، اذ بصر الساسة الذين لقيهم بمغبة التساهل مع الاحتلال الانجليزى ، وبين لهم خطره على مصالح الدول الأخرى وما تركه من الأثر السىء فى نفوس المصريين والسودانيين ..

ولم يقف أبو نظارة زياراته على أوروبا بل قام بزيارات لتركيا وبلاد شمال افريقية وغيرها من البلدان التى استقبل فيها استقبال الغزاة الفاتحين، وحاضر فيها عن ماضي بلاده وحاضرها ، وكشف أثناءها ستر الانجليز وما يصنعون فى وادى النيل وقد سجل هذه الزيارات المختلفة فى كتب خاصة كما نشر معظمها فى أعداد صحفه المختلفة ، وقد أكد كثيرا من الصداقات مع أمراء تلك البلاد وملوكها ، ونال الحظوة لديهم فأمدوه بالمال وأنعموا عليه بالنياشين ، وساهموا فى كثير من أعداد صحف أبى نظارة بالاشتراك طويل الأمد ، ورد هو الجميل بنشر صور أولئك السادة والتحدث عنهم فى عشرات الأعداد التى تضمنت سيرهم وأخبارهم ، مع كثير من المدح الذى ما كان يليق أن يسجله يعقوب وهو ثائر على الطغاة فى مصر ، والثائر على الطغاة لا يرحب بكل تافه وجليل من الطغاة فى البلاد الشرقية الأخرى ..

لقد كانت فى صحفه الطرائف والغرائب ، كما كان فيها من روحه وفنه ما سما بها الى مصاف الصحف الهزلية العالمية ، ولا تحسب عليها الهنات التى وضحت فى مدح زيد أو عمرو ، فقد كان لصلات صاحبها ببعض الخاصة هنا وهناك أثرها فيما نأخذه عليها من هذه الهنات ..

ولا تحسب على صحف أبو نظارة أخطاء الطبع التى كثرت فى بعض سنواتها كثرة ملحوظة ، أو هذا الخط الردىء الذى تقلب على كتابته بعض الشرقيين وفى مقدمتهم الشـــآميون المقيمون فى باريس ، وكان بينهم مجيدون فى هذه الخطوط ، ظهرت جودة خطوطهم فى معظم صـــحفه ، ولعل أردأ الخطوط خط يعقوب نفسه ! ..

ولا يحسب على تلك الصـــحف هـــذا الورق القبيـــح الذى استعمله المترجم له فى طبعها ، فقد كان ذلك الورق القبيـــح

نادرا فى مئات الأعداد التى أصدرها ، وكان الورق الجميل غالبا على معظم نسخها ، ومن بينه ورق أبيض ناصع البياض ، أو ورق أسمر جيد طبعت عليه الصور ملونة تلوينا بديعا ، ما كان يمكن أن تشرق عليه تلك الصور ما لم يكن ورقا جيد الصناعة والعجين ..

كانت صحفا فى الصدارة ، جديرة بهـذه الصفحات التى نوجز فى التاريخ لها حين نعرضها صـحيفة بعد أخرى ، ليرى الناس كيف أبدع ابن صـنوع ، وخلق لوطنـه اسما طبق الخافقين ، ومضى فى ركب الحضارة يعلن عن بلاده ويترجم عن عواطفها ويحكى آلامها وآمالها فى صدق وأمانة ، وفى ثقة واطمئنان ..

صحف في باريس

أصدر يعقوب بن صنوع فى باريس أكثر من صحيفة ..

أصدر الكاتب الأديب صحيفته الأولى ، وسماها « رحلة أبو نظارة زرقا الولى .. » على الصورة التى سنشرحها بعد قليل ثم أصدر بعد ذلك ، مجلة « أبو نظارة زرقا » وهى رجع الصدى لصحيفته الأولى التى أصدرها فى القاهرة ..

ولأسباب سنعرض لها وشيكا بدل الاسم فجعله « النظارات المصرية » ثم « أبو صفارة » واضطر الى تغييره مرة أخرى فأطلق على صحيفته اسم « الحلوى » ثم عاد الى « أبو نظارة زرقا » وهكذا تعددت أسماء صحفه ، فاذا هى تتجاوز اثنى عشر اسما قلما كانت واحدة منها تختلف فى الطابع والمزاج ، اختلفت فى الشكل والأحجام ، واختلفت كذلك فى جودة الورق والطباعة ، غير أنها جميعا ـ وبلااستثناء ـ أدت الرسالةالتى أخذ صاحبها على نفسه أداءها ، رسالةالدفاع عن الشعب المصرى ، ثمالدفاع عن وحدة وادى النيل متمثلة فى مصره وسودانه ، وبالحملة المتصلة المستمرة الملحة على أسرة محمد على، فيما خلا بعض الفترات التى سيجىء الحديث عنها ثم الهجوم العنيف الرائع على السياسة الانجليزية عامة والاحتلال البريطانى لمصر خاصة

ان صاحب هذه الرسالة كان فى محنة ، فقد اضطر الى الهجرة من بلاده حيث نشأ ودرج ، وحيث ساهم فى كل جديد عرفته مصر فى عهد اسماعيل ، بل حيث خلق هو الجديد متمثلا فى المسرح الذى أنشأه ، وفى الصحيفة التى أصدرها ،فاذا عاود نشاطه الصحفى فانما يعاوده لأبناء وطنه ومن أجلهم ، ومع ذلك فقد لقى المحنة مرة أخرى ، اذ نشطت الحكومة المصرية لمصادرة صحفه كلما حملتها السفن الىالوطنالذىماخف قط تحنانهاليه ، نشطت الحكومة الى ذلك فى عهد اسماعيل ، وزاد نشاطها ابان الاحتلال البريطانى لبلاده ، فاضطر الىتغيير اسمصحيفتهأكثرمن مرة حتى يوهمالمصريينالمسئولينأنها صحيفةلاتمتالى يعقوب بن صنوع بصلة ، فاذا تنبهت الحكومة المصرية الى الحقيقة اجتمع

مجلس النظار وأصدر قرارا بمنعهـا من دخول القطر المصرى وما أكثر ماكان المجلس يجتمع لهذا الغرض ! سواء اتصـل الموضوع بأبى نظارة أو بغيره من صحف الأحرار التى يصدرونها فى الخارج ليبصروا مواطنيهم بما هم فيه من ذل واسـتعباد
وطال الأمر بيعقوب ، فقد أمضى نحو ثلاثين سنة يصـدر صحفه ، وكانت تلك الصحف تصل الى قرائها بالرغم من عيون الحكومة وأدواتها ، وفى هذا يحكى لنا يعقوب قصة بديعة ، فقد ذكر أنه وظف أول نقود ربحهـا فى باريس فى نشر صحيفته « أبو نظارة » وقد كان لبعثها رنة فرح فى قلوب المصريين ، اذ كان الناس يعتقدون أنها اختفت الى ماشاء الله ، ولما كان مكتب البريد المصرى لاينتظر اطلاقا أن يرى صحيفة « أبو نظارة » تخرج من رمسها ، وخاصة أن الخديو اسماعيل ادعى أنه قبرها الى غير رجعة ، فأن الأعداد الأولى لصحيفته دخلت جميع مدن وادى النيل وقراه الرئيسية دون أن يلحظ ذلك أحد من المسئولين ، وقد احتفى بها المواطنون احتفاء عظيما .
ويذكر أبو نظارة أن أحد زعماء الحزب الوطنى من أصـدقائه العديدين كتب له يصف ذلك بقوله « لايمكن أن تتخيل الاستقبال الحماسى للأعداد الأولى من صحيفتك ، تلك الصحيفة التى اعتقد الجميع أنها ماتت ودفنت . لقد أحسنت صنعا بجعلها صحيفة مصورة . وان الرسوم الغريبة التى حليت صفحاتها بها حازت رضاء سكان المدن والريف على حد سواء ، ان غضب الخديو عظيم وعليه فأن صحيفتك لاتتمكن من عبور مكاتب البريد الخديوية »
ويمضى يعقوب بن صنوع قاصا علينا الظروف التى أحاطت بوصول صحيفته الى مصر ، فيذكر أن صديقه القاهرى لم يكن يعلم سعة حيلته وقدرته على التوسل بشـتى الطرق لادخال صحفه الى وطنه تحت نظر وسمع البوليس المصرى ، فيقـول « ولما كانت الثمرة المحرمة موضع تهافت الجميع من بدء الخليقة الى يومنا هذا ، فأنه منذ أن نفيت فى سنة ١٨٧٨ الى اليوم كانت صحيفتى تدخل سرا الى مصر وتباع بالآلاف . وما أكثر الحيل التى توسلت بهـا لتهريب صحيفتى رغم أنف البريد المصرى الانجليزى » ..
ويذكر لنا يعقوب كثيرا من الطرائف المتصلة بارسال صحفه

الى مصر ، ويحكيها في أسلوب بسيط واضح يحسن أن نستمع اليه وحده في وصف هذه الطرائف دون تعليق ، فهي لاتحتاج الى تعليق بما احتوت عليه من تفاصيل ٠

يقول أبو نظارة « كنت غالبا ماأضع صحفي في مجـــلات مصورة ، وفي كراسات الموسيقى ، وبين أوراق كتب من حجم الثمن ، وفي مجموعات للرسم ٠ وقد وضعت في الجرائد التي نشرت صورة الخديو توفيق سنة ١٨٧٩ أكثر من ألف نسـخة من صحيفتي ، ولم أكتف بارسالها الى المشتركين العديدين ولكن بعثت بها أيضا الى جميع أصدقائي ومعارفي وقد تلقى الخديو نفسه واحدة من تلك الصحف المصورة فوجد صحيفتي فيها ، وكان غضبه لهذه الجرأة شديدا وخاصة لما وجد أنني نشرت في صحيفتي الخطاب الذى أرسله الى يطلب فيه منى العودة الى مصر ويعدنى بأحدى الرتب ، وقد رفضت هذا العرض قائلا : انى أفضل أن أعيش في المنفى على أن أكون غنيا في خدمة طاغية » ٠

ثم يستطرد أبو نظارة في رواية هذه الطرائف فيقول « وفي سنة ١٨٨٥ تمكنت من ادخال أربعة آلاف نسخة من صحيفتي بوضعها في « مرتبة » سرير ووسادتين لسيدة فقيرة عائدة الى مصر ، ولم يلحظ رجال الجمرك شيئا ، وقدشكرتني تلك السيدة الفقيرة على الجرائد التى تبرعت لها بها ، وقالت انها ربحت من بيعها أكثر من خمسمائة فرنك » ٠

« وقد قيل لى ان النسخ التي كانت تضبط بين الحين والآخر في الجمرك ، كان الموظفون يقرأونها أولا ثم يعطونها لأصدقائهم ومعارفهم ، فاذا ماانتهى هؤلاء من قراءتها باعوها الى البـــاعة (السريحة) بواقع خمسة فرنكات لكل مائة نسخة ، وكان الباعة يوزعونها سرا بثمن مرتفع جدا » ٠

ويمضى المترجم له في سرد هذه القصة الممتعة من ألوان الكفاح التى زادت محنته حدة ، كفاح السعى وراء ارسال صحيفته الى مواطنيه ، فيذكر « أنه لما صفى المسيو أوجستان ، وهو تاجر جرائد في الاسكندرية ، أعماله وعاد الى فرنسا ، علمت أنه قد ربح ثمانين ألف فرنك من بيع صحيفتي خلال السنوات الست أو السبع التى كان يراسلني فيها ، بينما كنت أنا لا أحصل على تكاليف صحيفتي الا بشق النفس ، فعينت وطنيا بدلا منه ،

كنت أرسل اليه بانتظام خمسمائة نسخة من كل عدد بواقع خمسة فرنكات للمائة نسخة ، وبعد بضعة أشهر علمت ولله الحمد من بعض الخلصاء المنبثين في كل الوزارات والمصالح أن سعادة أورفرى باشا محافظ الاسكندرية الانجليزى لما اتصل به أن مراسلي كان يستلم في منزله خمسمائة نسخة من يد شخص مجهول ، نجح في اغرائه بمنحه خمسمائة فرنك في الشهرعن الصحف التى كانت تصل اليه منى ، والتى لم تكن تكلفه مائة فرنك ..

« وهكذا كان مراسلي يسلم المحافظ كل ماكنت أرسله اليه فما كان منى ، بدلا من أن أعاقبه بالامتناع عن مراسلته أن أصبحت أرسل اليه ضعف الكمية : خمسمائة نسخة يعطيها للمحافظ وخمسمائة ليبيعها ! وقد قبل مراسلي هذا العرض ، وظل المحافظ الذكي خمس سنوات يدفع للشيطان اعانة شــهرية قدرها خمسمائة فرنك ! ولم تنقطع الاعانة الا بعد وفاة المتمتع بها ! أما المحافظ فقد أصبح موضع سخرية الجميع ، لأننى قصصت هذه الحادثة المضحكة على كثير من الزملاء الصـحفيين ، وقد نشروها معلقين عليها بما يثير الضحك » ؟!

الى هنا وقف يعقوب بن صنوع في كتابة تاريخه ، فعز علينا أن نتبين في وضوح يشبه الوضوح الملحوظ فيما سرده من هذه التفاصيل ، مدى المتاعب التى أحاطت بصـحيفته في مصر ، والظروف التى اكتنفته في سبيل ادخالها الى البلاد بعد ذلك ، على أننا نستطيع أن نتخيل أن هذه المتاعب بقيت تلاحقه لأسباب أخرى غير ضغط الحكومة وتحفزها لمصادرة صحفه المختلفة ، فأن مصر ـ على مر الزمن ـ تمتعت في أيام كرومر بشىء من الحرية الصحفية التى أباحت لكثيرين اصدار صحف مماثلة لصحف (أبو نظارة) وتتفوق عليها بحالية الموضوع الذى تعالجه ، وقد أشار يعقوب الى تلك الصحف الهزلية في مجلاته فضــلا عن أن النهضة الصحفية المصرية في عهد عباس الثانى صرفت قراء أبى نظارة عن صحيفته بالقدر الذى دفعتهم الى الاقبــال على الصحف المحلية المماثلة ، ويتضح ذلك من صحف يعقوب نفسها ، فقد انصرفت هى أيضا عن علاج المشاكل المصرية بالطريقــة القديمة أو على الأقل بالالحاح المأثور عن صاحبها في تخصيص

كل صفحات مجلاته لشئون مصر وحدها ، فرأيناه يعالج مشاكل عربية وافريقية أخرى ، كان بعضها يستغرق معظم صحفه المختلفة ، هذا الى أن ارتقاء عباس الثانى أريكة الخديوية ، واطلاق حرية الصحافة حسب السياسة الانجليزية المرسومة التى استغلت الصحف لمهاجمة الخديو الشاب ، كانت هذه الظروف قمينة بأن تجعل وصول صحيفته الى مصر ميسرة ودون مضايقة ، وخاصة أن أولى الأمر من الانجليز لم يجدوا فيها عنفا يجاوز ما اعتادوه من الصحف المصرية المحلية ، وهى أقدر على رواية الحقائق وأعنف فى علاج المسائل السياسية الشائكة .

بقيت مسائل هامة فى تاريخ المتاعب التى صادفت يعقوب ابن صنوع ، هى كيف استطاع أن يصدر صحفه وحده ؟ هل كان يساعده أحد فى كتابتها أو كان يكتبها جميعا ؟ ومن أين كانت تجىء اليه الأخبار ؟ ومن ذا الذى قام بعمل الرسوم لها ؟ وفى ذلك تحكى الحقائق وتروى الأقاصيص والحكايات .

لقد كان يعقوب بن صنوع يلقى متاعب شاقة فى اصدار صحفه ، وهو يقص علينا بعض ذلك فى احدى محاوراته على لسان (أبى خليل) بقوله « ان الطبع غالى قوى قوى فى باريز » وأن الرسيم طماع وبيأخذ الشىء الفلانى والبوسطة وما أشبه» .

وقد ردد الشكوى من غلاء الطباعة العربية وتكاليفها فى المنفى فى أكثر من موضع من صحفه الكثيرة ، الأمر الذى ترتب عليه اضطراب مواعيد الصدور ، ففترة تصدر مرة كل أسبوع وأخرى كل أسبوعين وأحيانا تصدر مرة فى الشهر ، وكان للحالة النفسية الخاصة بالمترجم له دخل كبير فى اهتمامه بمواعيد صدورها أو تقاعسه عن ذلك ، وقد وضح لنا هذا الأمر فى نفس (المحاورة) حيث ينذر أبناء وطنه باهمال اصدار صحيفته اذا لم يجد صدى لما يكتب فيقول مهددا انه سيكتب « ثلاثين نمرة تانية انما اذا من هنا لهناك ماحصلش المراد والله وحياة أستاذى أبو نظارة معظمه ما أقرأ لهم السلام ، ولا يبقى على ملام ، وبشرط أنهم يسمعوا النصيحة ومايتنبلوش ويتبعوا المثل اللى قال اسعى ياعبدى وأنا أسعى معك وان رقدت ما أنفعك .. » مع أنه يعلم فى سنة ١٨٧٩ أن كثيرين من أحرار الشبان فكروا أكثر من مرة فى اصدار صحيفة مماثلة فى القاهرة

كلما تأخر عدد من أعداد مجلته ، وفى هـــذا معنى التقدير له ولصحيفته ٠

أما عن تحرير صحفه فلا شك أن القسط الأكبر مما كتب فيها كان من قلمه اللاذع الساخر ، وخاصة محاوراته وألعابه التياترية ، كما أنه وحده صاحب الايحاء بجميع مانشر فيها من صور ورسوم ، وهو وحده الذى علق على تلك الصور والرسوم، غير أن ذلك لايمنع من ذكر حقيقة هامة ، هى أنه كثيرا ماكتب أو أشار برسم بعد وصول خطاب من صاحب أو صديق من مصر، متضمنا بيانات أو أفكارا أو ايحاء بفكرة أو رأى ، ولاشك أيضا فى أنه نشر أشياء كما هى وردت له من مصر أو أقاليمها المختلفة ومن بيئات وجماعات متباينة ٠

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن السيد جمال الدين الافغانى والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده حررا طويلا فى صحف يعقوب ابن صنوع ، سواء فى صحيفته التى أصدرها فى مصر أو فى صحفه المختلفة التى نشرها فى باريس ، ورتب هؤلاء المؤرخون على ذلك أن المترجم له لم يحتمل وحده تحرير صحيفته ، والواقع يكذب ذلك كله ، فقد راجعنا مجموعات تلك الصحف نسخة بعد أخرى ، فلم نجد مقالا واحدا للشيخ محمد عبده ، وحتى فى الفترة التى قضاها الأستاذ الامام فى فرنسا منفيا من بلاده لم يخط حرفا فى صحيفة كاتبنا الكبير ، فقد كان الشيخ منصرفا الى تحرير صحيفة (العروة الوثقى) التى كان يصدرها بمعاونة الأفغانى فى باريس سنة ١٨٨٤ ، ولو نشر مقالا فى أى صحيفة من صحف أبى نظارة لمهره وكان ذلك شرفا لها ، فقد كان يعقوب مؤمنا بقدر الامام مقرا بفضله وعلمه بالرغم من الخلافات التى دبت بينهما فى ظروف لاداعى لذكرها هنا ٠

أما السيد جمال الدين الافغانى ، فله مع يعقوب بن صنوع تاريخ آخر ، ذكرنا طرفا منـــه حين كان المترجم له فى مصر ، يختلف الى ندوة العالم الكبير مع من كان يختلف اليها من النخبة المنتقاة والصفوة المرتجاة ، وهو الذى أوحى اليه بانشاء صحيفته وشجعه على ذلك بنشر مقالين فيها جاء ذكرهما فى احدى المحاورات التى نشرتها (أبو نظارة زرقا) وضـــمن خطاب وارد من مصر للمحرر جاء فيه أن تقريرا وضع للخديو سجل ماياتى « ياأفندم

ففشنا بياع أبو نظارة ووجدنا فى جيبه جواب له من خواجته وفيه خطين لجمال الدين الأفغانى فبعتنا ندهنا الفيلسوف وورينـاه الجواب فقال ان جيمس أعز أحبابه انما حلف أن منذ سفره الى باريس لاكتب له ولا ورد منه كتاب قط ، وهو لاينكر أنه كتب مقالتين فى النضارة القديمة » ..

واذن فجمال الدين لم يكتب فى صحيفة يعقوب الا مقالتين فى عددين من الاعداد الخمسة عشر التى صدرت فى مصر قبل نفيـه ، غـير أنه نزل باريس ووصله أبو نظارة بالود وخف اليه كما كان يخف اليـه فى القاهرة ، وقد تمكن من الحصول على تأييد السيد جمال الدين الافغـانى الأدبى ، فـكتب لصحيفته مقالا نشره فى صدر أحد أعدادها بعنوان (الشرق والشرقيين) وتوسط الصفحة رسم كامل «للسيد جمال الدين الحسـينى الأفغـانى » وقد استـغرق مقال الفيلسـوف الشرقى العـدد كلـه بصفحاته الأربع ، ويبدو أن العلاقات بين الصحفى والفيلسوف لم تكن صافية دائما . وما أكثر ما توترت العلاقات بينهما وسجلت أبو نظارة زرقا التوتر فى أكثر من موضع وان سجلت أيضـا مدى الاحترام العميق الذى كان يكنه يعقوب لأستاذه وأسـتاذ الجيل جمال الدين الأفغانى .

هدية منى الى الظريف اللطيف
حبيبى الشيخ حمس أبو النظارة
« جمال الدين الحسينى الأفغانى »

لقد حرر بعضهم مقالات وطرائف لأبى نظارة ، ووقعوا على ماكتبوا ، غير أن ذلك كان قليلا ونادرا جدا ، ونستطيع أن نجزم أن يعقوب بن صنوع قد كتب وحده صحفه زهاء ثلاثين عاما أو يزيد ، لم يمل أو يكل ، ولم ينشر واحد من الـكتاب أكثر من مقال فيما خلا صاحب مجلة النحلة التى كانت تصدر فى لندن

فقد وافاها بأكثر من مقال وخاصة في سنة ١٨٨٦ ، هذا الى أن الكاتب حين ينشر من بريده المقالات القليلة النادرة لم يكن ينشر دائما مايوافق رأيه أو يتفق مع سياسته بل انه سمح بنشر مقالة لاتجرى فى فلكه ولا تنسجم مع طابع صحفه .

وقد اعتمد ابن صنوع على دراساته الخاصة ومعلوماته الواسعة في موضوعات السياسة المصرية التى عالجها فى مجلاته العديدة، كما اعتمد على الصحف المصرية الواردة من مصر ، وخاصة جريدتي مصر والاهرام فقد كانت تلك الصحف جداوله الأصيلة التى ينقل عنها أخباره وحوادثه ، وكانت تلك الأخبار والحوادث تمكنه من التعليقات الممتعة التى قرأناها له ، فضلا عن أن كثيرين من معاصريه والمعجبين به كانوا يبعثون اليه برسائل خاصة ، هذا الى أن نخبة من أهل الرأى من رجالات البلد كانوا يخفون الى باريس أثناء الصيف ، ويزودون المترجم له بمادة بديعة كان أثرها يظهر واضحا فى الاعداد التى كانت تصدر ابان الصيف.

كان لصحف أبى نظارة رسام يقوم برسم الصور والأشكال ، وكان له مساعد يكتب صحيفته التى تطبع على الحجر ولا شك أن هذا المساعد قد تغير وتبدل أكثر من مرة لأن خط الصحف كان متفاوتا بين الرداءة والجودة ، وكان من أسوأ الخطوط التى شاهدناها فى صحف صنوع خطه نفسه ، فقد كان خطا معقدا تتعذر قراءته أو تقرأ حروفه بعد جهد ويشبهه فى التعقيد خط مساعده فى السنة الخامسة ومعظم السنة السادسة من أبى نظارة زرقاء ..

وهناك « عموميات » أخرى غلبت على صحفه كلها مهما تتعدد أحجامها أو أشكالها أو أسماؤها ، فهى جميعا تتميز بمحاورات واحدة وان تغيرت عناوينها وموضوعاتها قليلا ، كما أن هناك أسماء ساخرة أطلقها فى صحفه على رجال السياسة المصرية أو الانجليزية ، عسكريين أو مدنيين ، فأبو ريضة هو رياض باشا « مملوك عباس جنتمكان » ونوبار « غوبار » وهكس هو « اخص أو عكس أو هلس » وكليفورد لويد هو « البلاص كليفورد » الى آخر تلك الأسماء التى أجاد فى السخرية منها .

رحلة أبى نظارة زرقا

هى صحيفة مستكملة نواحى الفن الصحفي وان سماها «رحلة أبى نظارة زرقا الولى من مصر القاهرة . الى باريز الفاخرة . بقلم جمس سانووا محرر جريدة أبى نظارة زرقه الباهيـة . والدة النظارات المصرية » وقد صدر منها ثلاثون عددا ، كل عدد فى أربع صفحات ، محلى بالرسوم الكاريكاتورية ، ونشر يعقوب العدد الأول منها فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ أى بعد شهرين تقريبا من نفيه من مصر ، على أن تصدر مرة فى كل أسبوع ، وكان اشتراكها « خمسة وعشرين فرنك للثلاثين نمرة » ترسل للناشر فى باريس بمجرد وصول « أول نمرة» للمشترك أو تدفع لأى « بنك فرنساوى » أو يبعث المشترك ثمنها عن طريق شراء « ورقة حوالة من البوسطة أو عن يد حبيبه أبو نظارة بيضا فى اسكندرية » .

لقد جاءت هذه التفاصيل خلال المحاورة التى نشرت فى العدد الأول « بين أبى خليل وأبى العينين وأبى الشكر على قهـوة البورصة بالأزبكية فى اليوم السبت المبارك ٢٢ يونية سنة ١٨٧٨ » وجاء الى أسفل ذلك الكلام حديث آخر أو اعلان ، لعله أول اعلان فى صحيفة « الرحلة » عن الخمسة عشر عددا التى صدرت فى مصر وأنها تطبع على ورق جميل بمطبعة حجر بباريس .

ويتضمن العدد الأول محاورة بين شيخ الحارة (أى الخديو اسماعيل) وأبى نظارة ، وأبى الغلب الفلاح ، تحت رسم يصور يعقوب بن صنوع بقبعته ونظارته وعصاه والخديو راكعا والفلاح شامخ الأنف ، وقد جاءت فى هذه المحاورة معان شتى يحسن تسجيلها له فى هذه السطور .

شيخ الحارة ـ التوبة من دا النوبة اشفق يابو نظاره . على عمك شيخ الحارة . جريدتك ضربها قاسى أخاف منها على راسى . دى حطت فى قلبى الرعبه . بأقوالها المخفية الصعبة . اذا رفعت عنى الجريدة . أرجع لطرايقى الحميدة .

أبو نظارة ـ انت عمرك ماتتـوب • ولو رجموك بالطوب •
ده انت أمرك عند الجميع معلوم • بقى كيف أشفق عليك يامشوم •
والله ما ارحمك يامطعم الناس للسمك • ياخبيث يامسموم الريق •
ياقاتل الأمير الصديق (يقصد اسماعيل باشا صديق) •

أبو الغلب الفلاح ـ ماتشفجش يابو نظاره • الشفجه فى الغاير
ده خسارة • ده جتلنا من الظلم والجور • ونازل علينا زىماينزل
السواج عالتور • جبر يلمه • ويعتقنا من ظلمه •

ثم تضمن هذا العدد أيضا محاورة بين «أبى خليل وأبى العينين
وأبى الشكر •• » وقد استغرقت تلك المحاورة ثلاث صفحات من
صفحات المجلة الأربع ، وتكاد تكون بقية أعداد « رحلة أبو نظارة
زرقا » صورة من العدد الأول المذكور الا بعض أعداد تميزت
ببعض مقالات باللغة العربية كرسالة الشـفعاوى وغـيرها ،
وان كانت مقالات نادرة لأسلوبها العالى الذى لايتلاءم مع روح
الصحيفة الساخرة ، هذا الى أن الصفحة الأولى فى كل عـدد
تحتوى على صورة ترمز الى معنى من المعانى التى تضطرب بهـا
الحياة المصرية ••

وليس فى رحلة أبى نظارة زرقا اعلانات ، يستعين بها يعقوب
على أداء واجبه الصحفى ، بل ان كل الاعلانات ، اتصلت بالجريدة
أو صاحبها معلم اللغات ، والاعلانات المتصلة بالصحيفة تتحدث
عن اشتراكها أو تحريرها ، وقد عثرنا على اعلان طريف ندرجه
هنا ، وهو يعطى فكرة عن الوسائل التى كان يحصل بهـا
يعقوب بن صنوع على كثير من المواد الصالحة للنشر •

قالت رحلة أبى نظارة زرقا تحت عنوان (اعلان) « المرجو من
حضرات المطلعين على صحيفتنا من اخواننا أهل القطر المصرى
الكرام وأصحابنا من أهل سورية والعراق والجزاير والهنـد
وتونس وساير البلاد العربية ان من يرغب نشر نبذة مفيدة أو
نادرة لطيفة بأى معنى كانت فليرسل بها الينا الى عنواننا المحرر
بذيله فاننا نبادر بادراجها فى الصحيفة ونتشكر فضل من يكرموا
علينا بها وان شاء ذكر اسمه أو اخفاءه فله الخيار فى ذلك فاننا
نصنع كمراده على شرط اظهـار ارادته اما بكتم اسـمه أو
باشهاره » •

أما عن رسـالة « الرحلة » من الناحية النفسـية فتتميز

بالتخصص في الحملة على اسماعيـــل وأدوات حكمه ، وحض المواطنين على الثورة في وضوح لا لبس فيه ، لم يخل عدد ، بل لم تخل صفحة من كشف خفايا حكم الخديو ، ماصنعه من قبل وما يصنعه اليوم ، فهو يحدثنا عن اسماعيل في زيارة المقابر ، « انت جاى متخفى مصفر اللون وناشف الريق • تطلب السماح من قتيلك الصديق • آهو المخنوق من قبره قام • ووراه المسمومين بكاس المدام • وبفنجان القهوة اياه • المعروف بضد ماء الحياة • كل الأمراء دول قصفت عمرهم • ويتمت عيـــالهم وكشفت ستترهم •• »

وبذلك يسجل يعقوب طرق تخلص الخديو من خصومه الامراء والوزراء ، وهي متعددة الأشكال والالوان ، من خنق الى سم مذاب في خمر أو قهوة ، وهو يرتكب هذه الجرائم « حتى تموت معهم أعظم الأسرار » وزاد المحرر قارئه ايضاحا بنشر صورة بديعة تفسر ماكتبه وتؤكد ماذهب اليه ••

ثم يسخر الكاتب سخرية لاذعة من حال الخديو بعد أن تنازل عن أملاكه لسد الديون ، يسخر في زجل ممتع استغرق أكثر من نصف صفحة ، ننقل هنـا بعض فقراته كعنوان لأزجاله التي تعبر عن حال صاحبها ، وقد جاء هذا الزجل في « محاورة بين أبي خليل وأبي نظارة في شانزيليزه » وفيه يقول :ـ

ايه دى العباره المتعوسـه	صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فى مغروســــه	دى وقعتى وقعـة خرفان

شرم برم حالى غلبان

ما اعرفش ايه من دا الطالع	مقصـــودهم أبقى خالع
واطلع كــــدا منفض والـع	يامحـلا لما أصبح عريان

شرم برم حالى غلبان

دول سلطوا المســترفلسن	اكمنـه مجـــدع وملسن
لعن خاشى بركات ورسن	ماخـلاليش فى الدرامات

شرم برم حالى غلبان

فجابولى عمى الشيخ نوبار	وعملوه رئيس الـــكبار
يحمر لى عينــه زى النــار	وأنا قاعد قصاده جربان

شرم برم حالى غلبان

لقد نقلت بعض فقرات الزجل غير مراع ترتيبه، نظرا لأن الفقرات التي تجاوزت عن نشرها تضمنت ألفاظا لا يليق أن تنشر في مطبوع ويحسن أن يخلو منها ويبعد عن اسفافها ، غير أن الزجل في عمومه يؤرخ بطريقة خاصة للأزمة المالية التي اصطنعتها سياسة اسماعيل وحاشيته حتى انتهت بانهيار اقتصاديات البلاد ، وفي مقدمتها الشئون المالية الخاصة باسماعيل نفسه ، الأمر الذي ترتب عليه رهن ممتلكاته وكف يده عن الشئون العامة جميعا ، ونقل السلطة الى مجلس النظار على النهج المعروف في كتب التاريخ .



نوبار باشا أو نوبار ! !

وقد شغلت الأزمة المالية تفكير يعقوب في (رحلة أبي نظارة زرقا) فلا يكاد يمضي عدد دون ذكر لها ، وهو يحكي لنا في (محاورة بين أبي خليل وأبي نظارة) عن تعيين المستر ولسن وزيرا ، وان كان سماه « فلسن » من الافلاس ! ويقص ظروف هذا التعيين فيقول أبو نضارة « بقي المستر فلسن لما قفش الجندي قفشة جد ودبدب له وورطن له باللسان وقاله قدام باريس وما أشبه وطلب منه كشف دفاتر وحسابات والدواهي السود اياها ، فالجندي قال في نفسه ـ والجندي يعني الخديو ـ أخلص من رسول جهنم ده ازاي ؟ نعمله ناظر مالية وأعطاه كم مفتاح انما على حاصل فارغ ونفخه نفخة انكليزية وطبطب عليه وعزمه عنده انما ماسقاهش الفنجان القهوة اياه لسا ماجاش وقته » .

ويبين يعقوب اشاعات الخديو التى أطلقها بأن الأجانب هم سبب الأزمة المالية وأنه برىء ، وأنهم أفقروه مع من أفقروهمن سائر المصريين ، ولكنه يكذب ادعاءاته على لسان أحد المواطنين ، وقد جاء ذلك كله تحت عنوان (محاورة بين شيخ الحارة والشيخ محمد والشيخمنصور والشيخعبد الرحيم) ننشر هنا طرفا منها:

شيخ الحارة ــ بقى شوفوا يا أخوانى ، الافرنج هلكوا بدنى وأخذوا ماوراى وما قدامى وخلونى على الحصيرة وخربوا البر ونهبوا الفلاح ·

شيخ منصور ــ لعنة الله عليهم (ثم يقول فى نفسه) ماحدش خرب البر غيرك ·



اما الشطاره دي خساره في شيخ الحاره بيلعب الحاوي بالنجليزي والفرنساوي ويبنطط النمساوي بيحط في الجراب كلام مجلس النواب ويبسى في الخراب ويعصر الفلاحين على دفع اموال الطين والحال بينهبهم المساكين ابخص على النذال. لو كانوا رجال ماكانش يلعب الدجال ٭

كيف عبث اسماعيل بالمصريين والأجانب على السواء ؟

ثم يمضى الكاتب مبينا أوزار اسماعيل التى ارتكبها حتى تأزمت الأمور المالية ، وقد فصل ذلك فى عدد آخر تحتعنوان (لعبة تياترية حصلت فى مدينة زيراب من بلاد الغرب ·

وأسماء أشخاص اللعب · رشيد سلطان الكنوز · فانوس خزندار دولته · فرعون ملك مصر · فلسن ناظر مالية · أعظم بنكيرية وتجار القطر المصرى) ·

ويتخيل الكاتب اجتماعا لمجلس النواب المصرى · ويسجله تحت عنوان (البارلمنتو المصرى) ثم يذكر فى محاورة حصلت **« مابين الشيخ عبد العال أبو جموس عمدة ناحية بيت العجل والشيخ محمد بلاصى عمدة كوم الشقافة والشيخ عمر أبو عيش نايب كفر الجيعانين وفلتس افندىهلس عمدة تل جريس وسعادة محاور باشا رشدى رئيس المجلس ومنافق بك وهمى باش كاتب »** مجلس النواب ولعل هذه المحاورة أمتع محاورات أبى نظارة فى رحلته ، فهى صورة بديعة لما كان ينبغى أن يكون عليه نواب ذلك العصر ، تخيلها الكاتب وأجراها على ألسنة المشايخ ، كما أنها تصور الظلم الفادح فى فرض الضرائب ، والسياسة السيئة التى اتبعها وزير المالية الانجليزى ، ننقل جزءا منها ، ومن أراد مزيدا فى تفاصيلها فليرجع الى المجلة نفسها ·

الرئيس ــ (يوجه نظره الى الأعضاء وينف ويبزق ويقول) سعادة ناظر المالية أرسل لنا افادة رسمية باللغة الانجليزية لأجل الضرائب الميرية لسداد الديون المصرية وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين افرنجية ودفع المتأخر من الماهية والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الحبية يعامل بالقوة الجبرية وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية وأفندينا قر على هذه القضية فكلا منكم يبدى رأيه بالحرية للمداولة ولا تخافوا من شىء بالكلية ·

أبو جموس ــ ان كانت المادة نفاق فاحنا نقر بالوفاق وان كانت حرية نبدى أفكارنا القلبية ·

الرئيس ــ شوف ياشيخ عبد العال أنا لا أعرف النفاق ولا المحال وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية · وسلامة طوية ··

أبو جموس ــ المادة ليس حاوجه مداولة ولا كثرة محاولة احنا قبلنا كل النوايب اللى مرت علينا مع جميع المصايب وبعنا ماورانا وماقدامنا ولابقاش حاجة أمامنا ده احنا كان عشمنا

من سى فلسن والجماعة الاوروباوية أن يخلصونا من العبودية لما سمعنا بأنهم ناس طيبين يكرهوا الظلم المبين فبسلامتهم مافلحوش ربنا يغنينا بفرجه العميم ويولى علينا رجل كريم حليم ويعتقنا من جور شيخ الحارة اللعين اللى سخمط وش الحمارة الطين وأنا وحياة راسك مافيش في بيتى ولاكيلة غلة ولاجاموسة ولاعجلة فيكفانا ظلم وخساير والله أعلم بما فى الضماير وماتنطوى عليه السراير ..

الرئيس ـ وانت قولك ايه ياشيخ محمد ؟

الشيخ محمد ـ احنا لانعرف مدير مالية ولاناظر خارجيـــة دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج وهم لابســين بتوع طوال اسمهم برانيط راخيين شعورهم زى ... (١) ويدردعوا نبيذ كتير ويتغدوا بلحم الخنزير وأما احنا ناس هواره نعرف طيب فى قناية الفرس والحمارة وأعرف سعادتك اننا ما نقبلش زيادة ضرايب ولا كترة مصايب وعاوزين تخفف المربوط ولاتسأل عن دبلنيين ولا مربوط وان انفلق شيخ الحارة ماندفع ولا بارة والا ان كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان فاحنا وحلانين وعن ذاتكم مستغنيين وان كان عاوزين النياشين بتوعكم خذوها والفلاحين أهى قدامكم كلوها لأن بلدنا وحياة راسك بعد ماكانت حايزه كمال اللطافه أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة الله يجازى ابن الحرام » .

هذه هى قصة الدين والضرائب ، عرضها المترجم له عرضـا بديعا ينم عن فهم لواقع الحال فى مصر اذ ذاك ، وعرضها فى ألفاظ ومعان مصرية خالصة ، وفى سخرية لاذعة جرت على ألسنة المشايخ الذين سماهم بأسماء ترمز الى المفارقات العجيبـــة فى البلاد ، فالشيخ « بلاصى » عمدة لكوم « الشقافة » ! والشـيخ « أبو عيش » نايب كعر « الجيعانين » ! غير أن الكاتب لايعنى مطلقا السخرية بالأعضاء وان كان قليل الثقة فى اســتماع الحكومة الى آرائهم أو تقديرها لمكانة المجلس ، وفى هذا يقول على لسان ــ أبو نظارة ــ « صار فتح البارلمنت اللى هو مجلس النواب وتليت فيه مقالتين طز فش .. واحدة كأنها من شيخ

---

١ ــ هنا كلمة يعف القلم عن تسجيلها

الحارة والثانية بصفة جواب لها من رئيس المجلس وكلمتين من أحد الأعضاء علموهم له من قبل دخول المجلس أما أغلب الاعضاء هم جدعان أحرار لايباعوا ولا يشتروا والظاهر أنهم اتفقوا على رأى واحد بالتكلم بغاية الحرية فى المجلس مش زى زمان اللى كانوا دائما يقولوا أى نعم أى نعم رأى سعادة الرئيس فى محله وما أشبه » ٠

واذا أحسن أبو نظارة الظن بكثير من أعضاء المجلس فأنه لم يؤمن قط بحكومة الخديو ولا بشجاعة وزرائه ، وهو يصورهم تصويرا يناسب أقدارهم الصحيحة فى « جلسة سرية فى جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم تحت رياسة السنجق الأكرم الأجل الأفخم عزيز أوغلو القوللى أحد أمراء الغز الذى ظلم أهل القطر المصرى فى سنة ١٢٠٣ وهلك سكانه » ويحدثنا عما دار فى هذه الجلسة بعنوان « محاورة بين عزيز أوغلو رئيس الجمعية وبين أعضاء الشركة وهم داخلى أغا وخارجى أغا وسيفك مليح أغا وأذرعلو أغا وحق نطاحى أغا وجهلى أغا وسهريج محافظى أغا » وعزيز أوغلو هذا هو الخديو اسماعيل ، وأعضاء الشركة هم على التوالى وزير الداخلية ووزير الخارجية ووزير الحربية ووزير الزراعة ووزير الحقانية ٠



مجلس الوزراء او جمعية الطراطير المشهورة بالضحك على دقون العالم !٠

أما جهلى أغا فيعنى به وزير المعارف ، وهي تورية لطيفة عن وزراء العهد التافهين الذين كانوا أشبه بالطراطير ! وقد أطلق على المحافظ الاسم الأخير المذكور .

وإننا حين نراجع تلك المحاورة الطويلة نجد أن المحرر قد أجرى على لسانهم مايمثلونه من نظارات .

وقد اعتاد أبو نظارة أن يهاجم أدوات الحكم جماعات وأفرادا . ويهاجم معهم بعض أعضاء البيت المالك ، ولم يسقط من حسابه حتى أميرات ذلك البيت ، مثال ذلك ماجاء فى أحد الاعداد من حملة عنيفة على نوبار أو غبار كما يسميه بعنوان « عصبة الانجال على الوزير الدجال ــ لعبة تياترية حصلت فى أيام الغز في اليوم الخامس عشر من شهر محرم سنة ١٢٩٦ أسماء أشخاص اللعب : أبو السباع شيخ الحارة . أبو الخير ختام . غبار وزير . توقيف ولى العهد . نحس ناظر جهادية . نحسين ناظر مالية . ستى محونة الوالدة . خيالة هانم . قرابه هانم . على أفندى شاويش خلخال أغا » .

وهكذا أخذ يعقوب بن صنوع يهاجم خصومه من الخديو الى الوزراء وكبار الموظفين ، تارة بالمحاورات وتارة بالأزجال البديعة وان لم تخل من ألفاظ بذيئة لاتليق فى معناها أو مبناها . ثم نجده بعد ذلك يحاول فى « رحلته » أن يثير الجيش على تلك الحكومة التى حاربها بعنف وقوة ، وقد بدأ منذ العدد العشرين يدعو الى تلك الثورة ، مبينا لضباط الجيش ورؤسائه مدى الظلم الواقع عليهم ، ويسجل لنا هذا فى محاورة طويلة استغرقت ثلاث صفحات ، وهو يعنى فى تلك المحاورة التاريخ للحادث المشهور ، حادث طرد بعض ضباط الجيش والتوقف عن دفع مرتباتهم ، الأمر الذى أثار سخطهم ودفعهم الى التظاهر كما تروى كتب مصر الحديثة ، فنجد فى المنظر الأول وصفا مؤثرا ..

(فى بيت الجهادى . غلبان بك اميرالاى ، حزينة هانم زوجته . جيعانه هانم بنتهم . وعريان بك ابنهم) !!

غلبان بك ــ (يمسح دموعه ويقول) والله لو لم يكن محرم عندنا فى الديانة لقتلت نفسى وخلصت من العيشة المنحوسة دى . آهى الهانم داخله ووراءها العيال ولا شك انها رايحة

تطلب منى كم قرش تبعت تجيب بهم رغيفين عيش وقطعةجبنة والا نموت من الجوع ، وأنا ربنا عالم مافى جيبى خمسة فضة . هو المدبر .

حزينة هانم ـ (تدخل وفى يدها الأطفال) صباح الخير ياسيدى .

جيعانه هانم وعريان بك ـ (يبوسوه وهم يقولوا) نهارك سعيد يابابا .

غلبان بك ـ آه والنبى يا أولادى من يوم ماتولى علينا شيخ الحارة السعد سابنا ومشي . فين أيامك السعيدة ياسعيد ؟ كانت الجهادية متشرفة ومسرورة مش زى اليوم جيعانه ومقهورة .

حزينة هانم ـ والعمل يابيك ؟ قول احنا الاتنين نقدرنصوم انما العيال دول والله بيجرحوا قلبى كلما يقولوا لى ياماما بدنا ناكل . اليوم مافطرناش بقى ما احناش رايحين نتغدى .

غلبان بك ـ لاحول ولاقوة الا بالله العلى العظيم . ياليتنى كنت نجار أو حمال أو زبال كنت على كل حال أقدر على قوت عيالى ولا أشوف بيتى فى الفقر ده فصدق من قال فيه الفقر كنز البلاء . الفقر هو الموت الأحمر . ماضرب العباد بسوط أوجع من الفقر . الفقر فى الأذن وقر ، وفى الكبد عقر ، وفى القلب نقر ، وفى الجوف بقر . واحنا يا أولاد مصر صبحنا على الحصيرة ولانحن واجدين لقمة نسد بها جوعنا وساكتين على غلبنا . ياخى خلينا نغور والله نستاهل أكثر من كده وفرعون قليل ظلمه فينا .

وتمضى المناظر ، منظرا بعد منظر تحدثنا عن سخط غلبان بك وجرأته على الخديو حين قابله محتجا على حاله ، وجوع عياله وما انتهى اليه أمره من تناول القهوة المسمومة فى قصر اسماعيل وموته ، وكان أنكى مافى القصة تصوير المؤلف لختامها حين أمر أتباع الخديو بانزال تابوت الميت من على أكتاف زملائه حتى يدفع الضرائب المستحقة عليه ! ولولا « خواجه نصرانى » تبرع بالمطلوب لكان ختام القصة أبشع ماعرف فى القصص والحكايات ! ..

ثم يمضى أبو نظارة فى مدح الضباط الذين تجمهروا عند

رئيس النظار ، ويروى ماحدث تحت عنوان (محاورة مابين أبو الخير وأبو اللطف الجهادى) وهى فى الحق رواية من أصدق الروايات عن ذلك الحادث التاريخى الذى اختلف فى تفاصيله كثير من المؤرخين ، يصف ذلك بقوله « فاجتمعنا وتحالفنا بلسان واحد ، وحررنا عرضحال وطلبنا صرف الماهية والراحة العمومية وتوجهنا به الى أندال الرجال ، وهيئة الدجال مجلس النوائب، وأخذنا أعضائه ، وتوجهنا للمالية ، فتصادفنا مع الغاير غبار فصحنا وقلنا له معنا عرضحال فقال ، سكترجت أدبيس هرفلار، وأمر العربجى بضربنا بالكرباج ، فالتزمنا أن نحفظ شرف الجهادية وأنزلناه من العربية ! وأرجعناه الى المالية بالقوة الجبرية ، ثم ظهر فلسن فأفهمناه بالرجوع فامتثل ورجع بدون اهانة ، ثم الفرقة المخصوصة أحضرت على مبارك بمزيد التحقير وكلنا شاكين السلاح ومتوكلين على الفتاح ، وكانت ساعة عظيمة ، ثم حضر الفرعون الأكبر ومعه قدر ألف عسكرى فأمرهم بضربنا بالرصاص فأطلقوا بنادقهم الأرياح ولم يصبنا شيء . . »

كان يعقوب بن صنوع يريد من هذه الفصول الكثيرة التى كتبها ضد الخديو اسماعيل أن يتجه بها قليلا الى الجيش . وكثيرا الى بقية المواطنين ، ولقد كان يبصر مواطنيه بظلم الخديو مبينا لهم أنه حاكم يجب أن يعرف حقوق مواطنيه عليه ، وأن الدنيا قد تغيرت « دلوقت راحت السكرة واستيقظ الفلاح وجاءت له الفكرة ، ومن مدة كم يوم فاق وصحى من النوم ، وفهم أن رب العالمين خلق عباده حرين ، وجعل الملوك فى كل مكان على الرعايا كالرعيان ، يدلوهم فى طريق الفضيلة ويعلموهم العلوم والفنون الجميلة ، مش زى شيخ حارتنا الظالم اللى مايقدرش يشوف فى بلاده رجل عالم ، الا وحالا يعميه وفى بحر النيل يرميه ، تبقى عياله عليه مغمومه وأسماك البحر تعمل عليه عزومه ، انت نسيت الصديق وما جراله وذل حال حريماته وعياله ، وكم من أولاد حارتنا ياناس نعل خاشهم وأسقاهم دا الكاس ، احنا أندال قاعدين ساكتين ولأوامر الظالم ممتثلين »

وبعد فان يعقوب بن صنوع قد أمتعنا فى (رحلة أبى نظارة زرقا) بما قدمه لنا من محاورات وفصول تمثيلية تتفق وذوقه وتجرى مع سليقته وتوائم طبيعة الممثل فيه ، وقد ضمن ذلك

كله كثيرا من التاريخ وأقوال العامة وحكمهم في أسلوب مصرى عامى تخللته أحيانا بعض ألفاظ تركية وأجنبية وشامية ،ولكى نستوفى قصة هذه الرحلة غايتها يحسن أن نؤكد للقارىء بأن يعقوبا لم يكن كاتبا للغة العامية يجيد عبارتها ويحسن صياغتها وحدها بل كان الى جانب ذلك أديبا فى اللغة العربية الأصيلة، نشر بها فى (الرحلة) فصولا بديعة دلت على علمه بأصـــول الدين والدنيا ..

استمع اليه يقول « الحلم أجل من العقل لأن الله تعالى وصف نفسه به » ثم يتمثل بأقوال أئمة الدين فى هذا الموضوع فيقول « مابعث الله نبيا الى قوم إلا بعثه وأمره بالحلم » ، أو كما قال « ما أضيف شىء الى شىء أحسن من علم الى حلم »

ومن موضوعاته الأدبية « النصـيحة اللؤلؤية للمســامع الخديوية » ثم « رسالة الشفعاوى » وقد نشرت فى أكثر من عدد وهى فى أسلوب عال يختلف كل الاختلاف مع طابع الصحيفة وما تضمنته أعدادها الكثار ، وتتميز بعمق الفكرة ، وســلامة العبارة ، وانتقاء الالفاظ ، استمع اليه يحدثنا فيهــا عن ظلم الحاكم اسماعيل وسيرته السيئة « وكفاك أنه لايعرف معروفا ، ولاينكر منكرا . ولايوجد فى وقت الصلاة الا جنبا . وفى رمضان الا مفطرا . نعم يصوم ولكن عن الخيرات . ويستقبل الفجور متلطخا بنجاسة الفحشاء . فاجر يقتات بالـــكبائر . ويتفكه بالصغائر . ويروح من مولاه شاكيا ولشيطانه شاكرا ، فكأنه عاهد ابليس فلم يخن له عهدا ، ووعده أن يجد عنده كل معصية فلم يخلف له وعدا . ان ذكر الاتقياء والاخيار . قال احضروا الى الحكيم وان سمع بالأشـقياء الاشرار . قال غنى بذكرهم يانديم . فرعون بالنسبة اليه حاكم عادل . وأبو جهل ان قيس به امام فاضل . وليزيد لو ماثله لما اضطربت أقوالهم فى جواز اللعنة عليه . والحجاج لو شاكله لما اختلفوا فى نسبة الكفر اليه .

« ولكنهم ليسوا أكفاء له . فلو عادوا لاتخـــذوه امامهم . وسلموه زمامهم .. فانه هتك أستارا ماهتكوها . وانتهــك حرمات ما انتهكوها . وظلم حتى أهل القبور . وجار حتى على السمك فى البحور . فلو مسخه الله ذئبا لفتك بجميع الحيوان . أو حية لما بقى على وجه الأرض انسان . وحسبك أنه يحب

المظالم حبه لأولاده وأحبائه اللئام · ويبغض المراحم بغضه لأضداده وأعدائه الكرام ٠٠ »

هذه هي سيرة (رحلة أبي نظارة زرقا الولي ٠٠) قدعرضنا لها جملة وتفصيلا ، وبينا مواضع القوة والضعف فيها ، وهي بالرغم من كل الهنات التي لاحظناها في انشائها وأخطائها الاملائية والمطبعية تعتبر في ذمة مؤرخ الصحافة عملا جليل القدر ، وخاصة اذا راعينا أن محررها قد أعد لها العدةفي ظروف مادية قاسية وفي عجلة ودون تأن ، فانه لم يستكمل شهرين في المنفى الا وكان العدد الأول من (الرحلة) قد ظهر مطبوعا على الحجر برسمه الجميل ، وهذا نشاط صحفي كان ينبغي أن تظهر آثاره على مهل حتى يجيء كاملا مستوفيا كل أسباب النجاح ٠٠

أبو نظارة زرقا

أبو نظارة زرقا .. « صحيفة أسبوعية أدبية علمية . بها محاورات ظريفة . ونوادر لطيفة . ومواعظ مفيدة . ومقالات فريدة . وقصايد عجيبة . وأدوار غريبة . مديرها ومحررها الأستاذ جمس سانووا المصرى مؤسس التيارات العربية فى الديار المصرية . قيمة الاشتراك عن ٣٠ نمرة ٢٥ فرنك » .

يقرأ الكتاب من عنوانه ! أو تقرأ الصحيفة من أهدافها ، وقد أعلنت « أبو نظارة زرقا » عن أهدافها فى تلك البيانات التى سجلناها ، وقد حققتها جميعا وجاءت فيها بالمعجب والمطرب ، وعاونها على أداء رسالتها هذا الأداء الحسن الظرف الدقيق الذى كانت تمر فيه مصر اذ ذاك ، فقد اشتدت أزمة اسماعيل وتم عزله ، وتولى توفيق وتلاعب السلطان بفرمان تعيينه ، وعين رياض باشا ناظرا للنظارة فهاج الأحرار وصرعت صحفهم الواحدة تلو الأخرى ، وهذه كلها مادة يستطيع أن يجول فيها صنوع ويصول ، ويؤرخها على طريقته المعروفة .

لقد كان يعقوب يعرض على مواطنيه مآسى الأزمة المالية عددا بعد عدد ، وكان ناقدا مر النقد ، قاسيا أشد القسوة على الحكومة والخديو والأجانب وخاصة الانجليز ، غير أنه لم يكن يريد ، مهما تكن الأسباب ، أن ينتهز أحد فرصة الارتباك المالى فيحتل البلاد ، أو تصبح البلاد في يد حكومة أجنبية تدبر أمرها ، وهو يفضل « الموت ولا العيشة تحت تسلط حكومة أجنبية » غير أن ذلك لايمنع المترجم له من الترحيب بعزل اسماعيل وتعيين حليم ، وقد أجرى هذه الأمنية على لسان « أبى العينين » حين قال لأبى الشكر « ده شيخ التمن (يقصد السلطان) كتب لدول أوروبا أنه رايح يرفت شيخ الحارة ويولى عمه بداله وهم جاوبوه وقالوا له الحارة حارتك اعمل فيها كما تشاء » .

ثم يهاجم أبو نظارة الخديو اسماعيل وكرسى الحكم يهتز من تحته اهتزازا عنيفا ، ولا يرى هناك أملا فى مستقبل مصر وحاضرها على يديه ، بالرغم من تعيينه لشريف باشا ناظرا

للنظار ، وهو ممثل الديمقراطية الهادئة والفئة الرشيدة أيام اسماعيل . وفى ذلك يقول فى رسالة « من أبى نظارة معظمة فى مصر الى أبى نظارة زرقا بباريز » .

« ولا تظن الوزارة الجديدة يطيل عمرها بل تستعفى عن قريب لأن مازال الجندى يلعب بديله كسوابقه ، وأوامره يصير اجراها بدون علم أبو شرف وبابا راغب ، والظلم والجور على حاله ، ولا بيطلع من يدهم شىء معه ، وصدق من قال لاتفرحوا لمن يروح لما تشوفوا من ييجى . شوف ياعزيزى ، اذا رب العالمين عين سيدنا موسى ناظر مالية وسيدنا عيسى ناظر خارجية وسيدنا محمد ناظر جهادية كن ميقن أن الفرعون يعمل شغله بسحره ويضحك عليهم ، وكلما مسكوه بسرقة وقالوا له جزاء الحرامى قطع يده يقول لهم والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس توبة من دى النوبة ، فلذلك أقول وهذا رأى جميع أبناء مصر أن اذا ما أسعفناش مولانا الأعظم بحلمه تحصل أشياء عمرها ماحصلت لأن العالم هنا يئست وقطعت الوجا والدنيا صبحت سودا أمام عيونهم ولا أحد بيشفق عليهم » .

ثم يصور لنا نفسية اسماعيل على لسان اسماعيل فى تلك الظروف التى كانت تمر به ، انه فى فزع وخوف بالرغم من أنه سيد البلاد .. انه يؤرخ لنا عن الحاكم المستبد الذى عجزت صحيفة معاصرة فى مصر عن أن ترسم له هذه الصورة البديعة ، وما كان فى وسع جريدة أو مجلة فى البلاد أن تقص على قرائها ظروف اسماعيل المضطربة ، ولكن صنوعا يبدع فى الوصف ويمتع فى هذا الخيال الذى جاء بعنوان « شيخ الحارة » وهى « لعبة تياترية حصلت فى أيام الفراعنة ، وأشخاص اللعب هم

الخديو توفيق او توقيف كما يسميه أبو نظارة ! ..

شـيخ الحـارة ومشـخلعتلو هانم وشـمعدان أغا حـريم وتوقيف أفندي ونحس ونحسين ورياض وأبو الحلم ومجـدع الجهادى وجدة ابن البلد وعمر شهامة فلاح » .

ولسنا نريد أن نطيل في اقتطاف بعض ماجاء في اللعبـة التياترية ، وان كانت جديرة بنقلها جميعا ، غير أننا سنقتصر على اسماعيل وهو فى حجرة نومه لم يمسسه الكرى ، ساهد حتى مطلع الفجر ، يحدث نفسه حديثا ممتعا فيه صورة بديعة لشخصية الخديو وطرائق نظره الى الحياة ورأيه في وطنـه ومواطنيه ..

يقول اسماعيل « راحت عليك يابو السباع آه .. الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة ، ده كان يوم نحس وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين ، المكتوب على الجبين تراه العيون ، نعمل ايه في طمع الدنيا ؟ أديني صبحت أشـقى مخلوقات الله والخوف قاتلني ، مائتين عسكرى ومدفعين حـول سرايتى وبرضى مرعوب ، وكل ما أسمع حد قابل على أنفزع وقلبى يطب وأقول في نفسى آهم ضباط الجهـادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ويقبضوا روحي ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتهم بغاية التعب والمشقة ويولوا عمى العديم شيخ حارة عواضى . بلا هلس .. ده أنا سيدهم فى المكر ولاأخاف من ملك الشياطين أما الجماعة مستحلفين لى بقطعة علقة صنعه . مايطلعش من يدهم حاجة ، البصاصين كتير . ومأمور الضبطية جـدع ولى حبايب أصدقاء بين الضباط والتلامذه وبيعرفونى بـكل اللى يحصل يومى ، أما أبو نضـارة اللعين راح جـدد له جرنال تانى وقال فى حب الوطن . آهو زى الكلب اللى بينبح خليه يعوى .. آيا اسماعيل .. انت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده انما قلبك بيرجف وضميرك فى قلق ، أهو الليل بيفوت بطوله وعينك مابتدوق النوم ، آديني سـامع تشخير الآغاوات ، يابختهم دول مبسوطين ولاهم عارفين الدنيا بتعمل ايه ، والناس اللى ماتفهمش الصورة ايه تقول عليهم دول مساكين لكونهـم محرومين من لذات الدنيا ، آه يامغفلين والله ماحد محروم غيرى أنا ، لكونى مايستلذ لا باكل ولا بشرب من خوفي آن خدامينى

يسمونى ، ولما آخرج من البيت كلما أعدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى أن يوم القيامة جاء وأنظر يمين وشمال ومن لحظة للحظة يتراءى لى أن العالم رايحــه تهجم على عربيتى وتهلكنى . ياخي لا . والله اني مجنون . هو أنا في أوروبا ؟ احنا في مصر وأولاد مصر يخافوا من خيالهم ، دول ناس ، ذرطه من غير مؤاخذة تطيرهم ، والا ماكنتش خلصت من أياديهم يوم قيامة الضباط ، آدينى بعمل بكيفي ولا حد قادر على . غبار طلعت عليه ضامه وشقلبته رغما عن أنف مشايخ حوارى الافرنج ، وفلسن وبلانور دسيتهم في جيوبى ، وباذن الله انتصر على شيخ التمن وأحطه هو ووزيره فى الجراب . أمااللى غايظنى أنا ، هو أبو الحلم لأن كل الشعب هنا بيحبه ، والا ماكانوش يكتبوا لشيخ التمن ولأعظم ملوك الافرنج ويتشكوا من جورى وظلمى ويقولوا عاوزين لهم شيخ حارة كريم حليم . الله ينعلكم يا أهل مصر ، يعنى أنا عملت لكم ايه ؟ أنا شاريكم من عبد العزيز ، ودايما السيد يفعل في عبده كما يشاء ، فلوسكم دى فلوسى وانتم ملزومين تخدمونى بالسخرة ، والا الفرق بيني وبينكم ايه ؟ أما الفلاحين بيموتوا من الجوع . ان شا الله مافضلوا . الفلاح ماهوش بنى آدم . الفلاح بهيم وربنا خالقه للتعب زى التور ، والتور أنفع منه لأنه بيعطينى لحمه آكله ، أما الفلاح نتن وهو حى ، وبعدموته القبر فيه خسارة ، لو كان هنا هذا الخنزير أبو نضارة . كان يقول لى القبر خسارة فيك يافرعون لكونك بتظلم خلق الله ، انما أبو نضارة نفيناه من حارتنا وآهو قاعد بيشحت في بلاد فرنسا . آهي الشمس طالعة وأنا لسه مانمتش . آه من عيشتى ! ما أمرها ! والعمل ايه ؟ الشيطان يدبرنى .. »

لقد اكتفينا بنحو نهر من الصفحات الثلاث التى نشرها أبو نظارة ليصور فيها نفسية الخديو اسماعيل قبيل عزله بشهور قليلة ، وقد تعرض فيها الكاتب لعبث الأمير بشئون الحكم ونهمه فى جمع المال ، ثم شرح حياة القصر كأنه واحد من أقرب المقربين الى الخديو ، فعرض أسرار بيت اسماعيل وفضائحه ، كما قال رأيه فى « أولاد مصر » على لسان اسماعيل فقد كانوا حقا يخافون خيالهم والا لثاروا على الطاغية وثلوا

عرشه ، ولكنهم استكانوا حتى تدخل الأجانب فعزلوه بعد نحو ثلاثة أشهر ، ثم شرح رأى البيت المالك فى الفلاحين المصريين ، وهو رأى توارثه الخلف منهم عن السلف .

لقد شرح أبو نظارة لقرائه نفسية اسماعيل فى عدة فصول من « لعبته التياترية » وهو لايريد أن يختم هذه « اللعبة » دون أن يبين لهم طريق التخلص من الظالم ، لعل مادار بذهنه يعجبهم ، أو لعل الشجاعة تواتيهم فينهضون لانقاذ بلادهم بطرد اسماعيل ، وقد رسم لهم ذلك فى المنظرين ، الرابع والخامس ، ننشرهما هنا ، فقد كان أكرم ، للمصريين لو استطاعوا تمثيل هذين الفصلين على الصورة التى بينها الكاتب الأديب .

(المنظر الرابع فى شارع عبدين . شيخ الحارة وتوقيف ونحس ونحسين ورياض حاملين أكياس على أكتافهم وأوراق تحت باطهم ووراهم دستة قواصة ثم مشايخ الأزهر) .

رياض ــ اتلحلحوا ياجماعة مانتوش سامعين الزعيق من بعيد (الجميع يرمحوا) .

مشايخ الأزهر ــ (على بعد) ربنا كريم حليم يابو نضاره الله ينصرنا على شيخ الحارة .

توقيف ــ حتى المشايخ ضدنا ، ده أنا يوم الدوسة عملت لهم مقام .

شيخ الحارة ــ جيعانين نعطى لهم لقمة جراية يسكتوا .

(المنظر الخامس . مشايخ الأزهر والضباط والتلامذه والورشجية (المرفوتين ومجدع وحدق وعمر شلهمة وأبو الخير)

مجدع ــ (يسلت سيفه ويقول لشيخ الحارة) طالع ترمح على فين يافرعون ؟

حدق ــ الأكياس دى والأوراق تقيلة عليكم (ياخذها منهم ويعطيها للتلامذة والضباط) .

عمر شهامة ــ آه ياغاير ياما عملت فينا .

أبو الخير ــ (يقول لشيخ الحارة)اقرأ هذا الفرمان من مولانا السلطان .

أبو الحلم ــ أنا نصحتك يا ابن الأخ من مدة سنة بجوابى فلو كنت سمعت كلامى كان البر انصلح وانت فضلت عليه

شيخ حارة ، انما انت خربته وهتكت اسم مصر وأهلها .

حدق ــ لما توليت يافرعون البر ماكانش مديون ، واليوم عليهماية مليون جنيه ، المبالغ دى راحت فين ؟

مشايخ الأزهر ــ بنى بها سرايات وصرفها فى الفسق والفساد .

عمر شهامة ــ وعوض مايساعد الفلاح ويصلح أحوال الزراعة اللى هى سعادة أهالى القطر ، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا وموتنا من الجوع .

مشايخ الأزهر ــ فرعون كافر وآخرته الجحيم ربنا كريم حليم ...

أبو الخير ــ (الى الضباط) تسليمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره ، اذهبوا بهم الى الاسكندرية ، وأنت يامجدع باشا سلمهم الى قبطان مركبنا العثمانية وهو يجرى اللازم (الضباط وحدق يفعلوا ذلك ويضربوا القواصة اللى يتجاسروا يعارضوهم) .

شيخ الحارة ــ (يزعق ويقول) الحارة حارتى وأنا شيخها وأنتم مالكم ومالى ؟

مشايخ الأزهر ــ جرجروه .. ماتسمعوش كلامه .

(الجميع يغنوا)

انت فين يابو نضاره	تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحارة	وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم	افرحوا يا أهل النيل
الله ينصر سى حليم	ويعاقب اسماعيل

ويعود أبو نظارة فيستيقظ من هذا الحلم الذى تمناه للمصريين وتجابهه الحقيقة المرة بأنهم أضعف من أن يسلكوا تلك الطريق ، وأن النخوة تعوزهم لبلوغ هذا الأمل فيقول على لسان أبى خليل « أهل مصر كانت شجاعة فى أيام الفراعنة ، أما اليوم مايخرجش من يدهم يعملوا شىء زى ده لأنهم أخذوا على التنبلة » !


رياض أو أبو ريشة أو الوزير المشخلع !

وهكذا ينتهز يعقوب بن صنوع هذا القلق الذى أصاب الخديو اسماعيل وهذه الاضطرابات التى أحاطت بعرشه ، فيجلى فى الحملة عليه وعلى الفساد الذى أشاعه فى البلاد ، وأساء به الى الدين أيضا كتصرفات الخديو فى أموال الأوقاف الخيرية التى كان ينبغى أن يرعاها بالذمة والشرف « كلما يخرب منزل أو حانوت بدل تعميره جارى مبيعه والعقار والاطيان الموقوفة للجوامع وغيره اللى انهدمت فى الشوارع ويزيد عددهم عن مايتين أخذهم الفرعون ، فهذا هو السبب الوحيد لخراب الجوامع وتعطيل الشعائر الاسلامية ... »

ثم يعزل اسماعيل العدو اللدود ليعقوب بن صنوع ، ويتولى الأريكة الخديوية ابنه توفيق ، ولم يكن فى ذلك تحقيق للرغبة الجامحة فى قلب يعقوب ، فهذا بعض النصر وليس النصر كله ، انه كان يريد أن ينفى اسماعيل من مصر ويتولى مكانه عمه الأمير حليم ، وهو لسانه فى مصر أو فى خارج مصر ، بيد أن عزل اسماعيل لم يقض فى نظره على المفاسد ، اذ احتفظ العهد الجديد بأدوات الحكم القديمة ، وهى أدوات فاسدة يعلن عنها عن طريق خطاب تلقاه من الجيزة وفيه يقول صاحبه « ربنا يخلصنا على خير من وكيلنا أحمد عصمت لأنه جايب لمديريتنا العما . ده كان فى المدة الماضية محسوب خلخال أغا شمعدان

الست الكبيرة . والآن محسوب كمال أفندى ، ومن حيث أنه لم يكتفى بالنهب والسلب السابق ، فهو دلوقت بيعمل شغله في أكل أموال العالم بالباطل ، وبينظم وبيهندس فى مزروغاته ، وفرعـــون الصـــغير ما اســـتعناش يقرأ العرايض اللى قدمناها له ، بقى شوف لنا طريقة انت يابو نضاره والسلام . انت ربنا بيقبل منك ، ولما دعيت على الأب سمع منك وريحنا منه ، فبالله ياوليد ادعى لنا على ابنه وخلصنا من شبكته اللى زى الزفت . عسى الحليم يحلم بحلمه ..»

ولم يعدم بالطبع ، اسماعيل قبل خلعه وتوفيق بعدتعيينه، من ألسنة تهاجم الأمير حليما الذى تعلق به كثير من أحرار المصريين ، وكانت تلك الألسنة تهاجمه بشدة فى الصحف الأوروبية ، وخاصةفيالصحف الانجليزية ، وقد استطاعدعاة الخديو أن يؤثروا فى تلك الصحف ، فخرجت بمقالات عنيفة صورت بها حليما نكرة لاعزوة له فى مصر ، وقد رد أبو نظارة على تلك الصحف بمقالات ممتعة ، سل فيها الحق من الباطل ، وأشار الى ذلك كله فى أكثر من موضع فى صحفه الكثار .

،وليس يعنى هذا أن المترجم له كان يكره أن تستقر أمور مصر ويسودها العدل على يد توفيق ، وأنه كان يرحب بالأمير حليم أميرا عليها ولو فسدالحال وساءالمآل .. انه مواطنشريف يؤثر حليما بالكلمة الطيبة لأنه نفى من مصر وحوربفى رزقه عندما أوصى ابن أخيه اسماعيل بأن يخفف نهمه ويهذب من سلوكه ، فاستحق عند الاحرار المكانة المرموقة ، ولقـــد كان يعقوب يتمنى أن يجد فى السياسة الجديدة فى عهد توفيـــق مايصرفه عن خصومته ، وهو ينشر مقالا جاءه من مواطن مصرى فيه بعض الثناء على توفيق وفيه رجاء لمصر فى العهد الجديد ، فاذا سئل فى (المحاورة) عما اذا كان من سياسته نشر مثـــل هذا المديح رد على سائله قائلا « معلوم لأن النضارة جريدة وطنية ماهش لا اسماعيلية ولاتوفيقية ولا حليمية ، فعلشان كده لازم ندرج فيها كل مايخص الوطن » .

ولكن أبا « خليـــل » يعترض على ذلك بأن الخطاب الذى سينشره ــ وقد نشره فعلا ــ فيه مدح شديد ، وهل منالعدل أن ينشر مثل هذا المديح فى شخص لايستحقهفيجيبهابنصنوع

وفى اجابته تظهر وطنيته السليمة قائلا « ياريت كان يستاهل المدح ده كنا نفرح ، لأن نحن غاية منانا صلاح البر ، انمايظهر من الرسالة الواردة لنا من جمعية محبين الحرية أن الأحوال برضها على ماكانت فى عهد فرعون وأذرط » .

ويتأخر فرمان التولية ، ويعرض أبو نظارة فى صحيفتــه لهذا ولغيره من الشئون ، ويذكر أن أمور البلاد لاتزال فى يد اسماعيل يقضى فيها من بعيد بأسوأماتقضى بهالأموروالاحكام ، وأن المصريين جديرون بهذا الذل لأنهم ارتضوه وقبلوه ومكنوا له ، فاذا عاب أحدهم فى « المحاورة المنشورة » علىالمصريين بأنه كان يجب عليهم أن يفزعوا الى دول أوروبا طالبــين تعيين من يرضاه المواطنون ، أجابهم ابن صنوع على لسان « الخطيب » بقوله « الكلام ده خليه لأهل أوروبا اللى حكامهم تحسب لهم حساب، أمااحنا حكامنايضربوناويأخذواكراايدهم،أدحناشفناعزل الأب وتولية الابن ولا تحركناش ، ياريت بس كدا الا كمان عملنا زينة ، واللى ماكنش راضى يعلق على بابه قنديل كانت الكومسيون تعلق على خدوده أقلام » !

واذا أشار أحد أعضاء المحاورة بالفزع الى السلطان ليعزل الابن كما عزل الأب قال يعقوب على لسان الرئيس «السلطان مابقت لوش سلطة على مصر ، والربط فى يد دول أوروباودول أوروبا وضعت الولد مؤقتا ، وبعدكمشهراذا شافتانهماهوش فالح حالا تشقلبه ، فنحن نقدر نكتبلفرنسا وانكلترا ونعرفهم أن الحاكم اللى انتخبوه لنا أذرط من أبوه ، وأنه يكره الناس العدلين ، ونلتمس منهم بأن يخلونا نولى اللى يعجبنا ، لأناذا استمرت الأحوال على ماهى اليوم . عمرهامصر ماتقيم راسها، أهم بدءوا يوقفوا صرف الماهيات ، ومن يعرف رايح يجرىايه فى دفع الكوبون » .

واذا تبين يعقوب بن صنوع أن الأمل ضعيف فى القضاءعلى توفيق كما قضى على اسماعيل ، أخذ على عاتقه كشف نوايا الحاكم الجديد ، وأساليب التهريج التى كان يتبعها ، والتى اتبعها من قبله أبوه ، واتبعها ، من بعده غيره من الخديوين والسلاطين والملوك ، ومن ذلك بيان العبث الذى كان يرتكبه توفيق فى زيارات الجوامع والصلاة فيها ! فيذكر فى احــدى

المحـاورات أن رياضـا طلب أجازة يومين ، فلم يوافق توفيـق ورد عليه قائلا « انت بدك تخلى الشمطلى يطلى وأنا أفضـــل لوحدى هنا وأقبل زياراتى وزياراتك ، والحال أن وراى أروح الجامع يومى أصلى ، لأن بابا قال لى فى تلغرافه الأخير ، ادعى خوف الله وروح مرارا الجوامع ، لأن ده شيء يعجب الرعاية ، وأنت يابابا رياض تعرف أني ما أصدقش فى شيء ، وانىبزعل لما بروح فى المحلات دى ، لأن أبو نضارة قال ان ربنا مايقبلشى دعاء الظالم » .

وليس هناك أبلغ من هذه السخرية ، انه يسخر بذلك من الخديو الذى يتزلف الى الله كذبا ، والذى يختلف الى بيوته الطاهرة من غير عقيدة ولا ايمان فى قلبه ، وهو يعرض ذلك كله محملا رياض باشا مغبة تلك الاعمال جميعا ، جلت أوهانت والخصومة بين ابن صنوع وبين رياض قديمة متجددة ، وهـو يذكر عنه أنه محاب لأقاربه وأنسبائه يتخطى فى الوظائف العامة أبناء السادة والاكفاء ، فيجرى على لسان (التلميـــذ نسيم) رأيه هذا فيقول « هكذا والا بلاش ، واحنا اذا كنـا ماناخدش حقنا قهرا عن شيخ الحارة وملاعينه مين يفكر فينـا أو يخدمنا ، آهو رياض كمثل ماخدم البيكاوات قرايبه محمود وطه وفريد والأعمى وعثمان وأحمد الوزان ، أهو الآن جعل زوج أختــه الأغبش وكيل مديرية القليوبية والآخر وكيـل المنوفية ومصطفى البغدادلى صهره ابنسودانية ناظر قلمدعاوى بالضابطية ، وباقى قرايبه ومحاسيبه جارى توظيفهم بماهيات ووظايف عالية ، وأولاد الذوات وغـــيرهم من ذوى الشرف والاستعداد لم أحد يسأل عنهم » .

لقد لقى رياض باشا من قلم ابن صنوع مالم يلقه وزير مصرى آخر ، وهو دائب على تسجيل مواقفه المزرية فى شئون الحكم فى عهد اسماعيل وولده توفيق ، ومن الطرائف التى صورها لنا ماحدث فى مجلس النواب بين رياض وبين الأعضاء حين أراد الوزير فض المجلس ، وهـذه الرواية التى رواها أبو نظارة هى أدق وأصدق ماروته صحيفة أو كتاب فى هـذا الباب ، مما يحسن معه نشرها فى هذه السطور ، انها محاورة أيضا بين « أبى خليل وأبى نظارة » .

أبو خليل ـ انت أوعدتنا فى آخر جورنالك بأنك تدرج مقالات

المويلحي والعطار ومدح أبو شرف وبابا راغب ، هات من تحايفك هات ٠

أبو نظارة ـ على العين والراس ياسيد الناس ، لما حضر رياض الى مجلس النواب وطلب انفضاضه آجابه محمود بك العطار ـ اسمع يابو خليل داالكلام الموزون ـ ياسعادةالباشا كيف يصير انفضاض المجلس بدون أن يعرض عليه شيء من اجراءات مجلس الوزراء وبدونأن يأتى أوان لعطلة ؟ هو ده مكتب مسخرة فتحهوقفله بيدكم ؟

أبو خليل ـ ماشاء الله على دا النفس ، وصاحبنا عبد السلام بك المويلحي قال ايه ؟

أبو نظارة ـ قال انت ياأفندم أخبرت جملة متظلمين من أبناء

شريف باشا أو أبو شرف !!

الوطن اللى كانوا طالبين حقوقهم بأن لهم نواب ينظرون فى شأنهم ، فكيف بدون أن مانظر فى شيء تأمرنا جنابك بالانصراف ، يعنى احنا عبيد أبوك ؟ فاذا انصرفنا كما ترغب وسألتنا الأمة ، وقالت يانواب ، ماذا فعلتم وأى فرده بطلتم وأى مظلوم خلصتم وأى مصيبة خففتم ، ياهل ترى نجاوبهم مثلما حضرتك جاوبت أصحاب الجرايد أن لالنا نوابولاشورى، وليس فينا من يفهم وكلنا على جهل ، لانحسن الخطابولاندرى الجواب ولافينا عشرة أشخاص يفهمون عبارة ولا يدروناشارة، مع علم سيادتك بأن اذا انفض المجلس على غير طايل فكنميقن أن الأمة لاريب تلقى المسئولية على الوزارة ٠

أبو خليل ـ يحرس دا الفم ، طيب وباقى الأعضاء قال ايه ؟
أبو نظارة ـ صاحوا بأعلى صوت وقالوا تعيش الحرية ٠
أبو خليل ـ أما الجماعة اتجدعنوا وعملوا الواجب ، بس أنا بستغرب ازاى سكتوا لهم ؟
أبو نظارة ـ الجندى اليومين دول بعيـــد عنك ٠٠ (١) فى لباسه لعلمه أن شيخ التمن زعلان عليه وحلف يمين معظم بالله وبرسوله بأن يخلع عدو أمة محمد ويولى محله المتصف بالحلم فعلى شان كده أبو السباع بيطنش ٠٠

وهكذا لم يخل عدد من التعليق على تصرفات رياض باشـا حين كان وزيرا للداخلية أو رئيسا للحكومة ، ومن التصرفات التى أقلقت بال يعقوب بن صنوع هذا الارهاب الذى شنه رياض على الصحف المصرية فى أواخر سنة ١٨٧٩ ، فقد صادر صحفا وأغلق صحفا ، ويقول المترجم له « على شــان جرنال فتاة مصر مع جرنال الميمون وجرنال التجـارة ومصر الجارى طبعهـــم باسكندرية تكلموا فى صالح الوطن أصدر أمره بتعطيلهم ، وقد كان وجرى تعطيل الأربعة جرانيل المذكورين فى أســـبوع واحد ٠٠٠ »

ان الضغط الذى لقيته صحافة مصر ، لقيه أيضا أبو نظارة من حكومة رياض ، فقد صادرت صحيفته ، الأمر الذى دعاه كما ذكرنا من قبل الى تغيير اسمها حتى يتيسر ادخالها الى مصر وقد حاول أن يصدر صحيفته الجديدة والى جانبها صحيفته القديمة ٠

ولكن ذلك تعذر عليه ، فقد كان فوق مقـــدوره أن يوالى صحيفتين معا سواء فى تحريرهما أو فى تمويلهما ، غير أن تغيير الاسم لايعنى مطلقا اختلافا فى السياسة ، بل اننا اذا أنصتنا الى أى صحيفة جديدة فكأنما نقرأ أو نسمع الى أبى نظارة زرقا أو الى رحلة أبى نظارة الولى ، لذلك كان اختفاء (أبى نظارة زرقا) أمرا لم يسىء الى تاريخها قط فقد عادت بعد سنوات كما سنبين فى فصول مقبلة ، واحتل مكانها فى تلك الفترة عدد من الصحف الأخرى ، جرت على سياستها تماما ، وهى ـ أى تلك الصحف الجديدة التى سدت الفراغ ـ تعتبر فى ذمة المؤرخ امتدادا لأبى نظارة زرقا ، لذلك ، يحسن دراستها على ضوء هذه الحقائق دون نظر الى أى اعتبار آخر ٠

١ ـ هنا لفظ نأنف من تسجيله ٠

النظارات المصرية

كانت مجلة (النظارات المصرية) احـــدى الفواصل التى قطعت على (أبى نظارة زرقا) سيرتها ، فقد احتلت مكانها جزءا من السنة الرابعة لصدور صحف يعقوب بن صنوع ، وان كانت النظارات المصرية قد صدرت قبل اختفاء اسم المجلة الأصيلة، وان كانت أيضا تختلف معها فى الحجم ، فهى تشبه الكتب الصغيرة المعروفة ، وأبو نظارة زرقا فى حجم مجلاتنا المعاصرة التى تماثل روز اليوسف والجيل الجديد وما اليهما .

صدرت (النظارات المصرية) فى ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، « جريدة تاريخية علمية تحرير مصر واسكندرية » وقد أشـــار الى قرب صدورها صاحبها يعقوب بن صنوع فى العدد الثلاثين من صحيفتـــه أبى نظارة زرقا وهى فى عمومها تشـــابه من حيث التحرير والانشاء صحف المترجم له الأخرى ، غير أنها تختلف عنها فى كثير من الموضوعات التى عالجتها كما أنهـــا مطبوعة على الحجر بخط جميل ، ويحتل صدرها دائما رسم يمثل فكرة من الافكار السياسية التى كانت تشغل بال الجماهير فى تلك الأيام ، وبعد صدور عدة أعداد منها ، رأينا فى الصفحة الأخيرة رسما معينا يسجل رأيا معينا بالاضـــافة الى الرسم الأصيل المنشور فى الصفحة الأولى .

كان أول موضوع عالجته (النظارات المصرية) متصلا فى أكثره بانشاء المجلة وأسباب هذا الانشاء ، وقد جاء هذا كله تحت عنوان « جلســـة يوم الجمعة المبـــارك فى محفل محبين الوطن تحت رياسة أبى نظارة معظمة ، والحـــاضرين الرئيس وكاتب اليد وأمين صندوق والخطيب والشاعر وجميع أعضـــاء الشركة » ويحسن ونحن نؤرخ لهذه المجلة ، التى لم يطل عمرها اذ صدر منها عشرة أعـــداد فقط ، أن نسجل ما يعنينـــا « من جلسة يوم الجمعة المبارك » تلك ، ففيها ايضاح لسيرة الصحيفة ، وبيان واف عنها ..

الرئيس ـ بسم الله الرحمن الرحيم ، اهدنا الصراط المستقيم، واحفظنا من شر وزارة الواد اللئيم • اتلى علينا ياحضرة كاتب يدنا أخبارك المهمة •

كاتب اليد ـ سمعا وطاعة يارئيسنا المحترم ، ورد لنا خطاب ظريف من أستاذنا الجليل أبو نضارة زرقا وبه يفيدنا أنهاتفق مع الموســـيوراجنو الطبيــع بباريز على نشر جريدة النظارات المصرية التي نحن عازمين على تأليفها لتنوير أبناء وطننالعزيز وارشادهم في سبيل الحرية ، فالمسيو راجنو قبل وعينللنسخ شخص على معرفة عظيمة في لغتنا العربية ، وتعهد بأن يطبع خمسة آلاف نسخة من كل عدد ويرسلها بطريقة حسنة الى وكلانا للبيع ••

الرئيس ـ أبو نضارة زرقا رجل لطيف ويســـتحق أفخر المدح لكونه يسعى دايما فيما ينتج منه تهذيب وتنوير وشرف أولاد بلده ••

أحد الأعضاء ـ أمال ليه بطل أو رايح يبطل نضارته ؟

الرئيس ـ هو الله يحفظه قبل ارتحاله من ديارنا كان أوعد بنشر ثلاثون عدد بصفة رحلة ، فعندما انتهت الأعدادالمذكورة جمعيتنا الشريفة التمست منه بأن يكتب ثلاثون نمرة أخرى • فامتثل لأوامرنا وفعل ذلك ، فالآن يجب علينا بأننتبعقدوته ونرفع عنه هذه المشقة ، ونجاهد نحن مثله في ميدان الحرية وحب الوطن ••

الخطيب ـ أبو نضارة زرقا اكتسب لهاسملايموت بل يصير حي خالد بعد موته •

الشاعر ـ كما قال أحد شعرانا •

أخو العـلم حيٌ خالد بعـد موته
وأوصـــاله تحت التراب رميـم
وذو الجهل ميتوهوماشيعلى الثرى
يعـدمن الأحيــاء وهو عـــديم

الخطيب ـ الله الله ! ما أعذب هذه الأبيات ! ربنا مايحرمنا منك ياشيخ يوسف ياشفعاوي ياشاعرنا العزيز ، أما احنـــا يرجع مرجوعنا الى أمر جرنالنا الجديد •

أمين الصندوق ـ أنا بنـاء على أمر رئيســنا المحترم أرسلت

الى الطبيع الدراهم اللازمة الى طبع العدد الأول والثانى،وحين يصير بيعهم هنا واسكندرية ، جميع الأرباح التى تنتج من بعد المصاريف نفرقها على مساكينا الذين يومى فى الزيادة لكثرة ظلم الحكام وجورهم .

كاتب اليـــد ــ جزاك الله خير يا أمين صندوق ، وأنا أنسخ جميع المقالات والمحاورات التى يتلونها علينا أعضاء شركتنـــا الخيرية وأرسلها اليه ، وأكتب خطاب لأستاذنا أبو نضارة زرقا وأترجاه بأنه يتفضل علينا ويكتب لنا مخاطبة ظريفة يوضح لنا فيها رأى جرايد أوربا من ظلم فرعون الأكبر مدة تسلطه على برنا .

الخطيب ــ حضرة الشيخ يوسف الشفعاوى شـــاعر محفلنا الشريف مؤلف الرحلة المشهورة فى تاريخ المطرود التى درجها فى رحلته جمس أبو نظارة زرقا كتب مقـــامة عظيمة فى هـــــذا الموضوع ..

الرئيس ــ سمعنا ياسيدنا مقامتك الظريفة ! .

الشاعر ــ ولو أنها ليست فى محلها . مع كل ذلك سمعا وطاعة .

وهكذا شرحت جلسة يوم الجمعة المبارك سياسة المجلة ، وهى نفس السياسة التى عرفناها عن مجلاته الثـــلاث التى صدرت من قبل ، ونجد فى (النظارات المصرية) أيضا نفس الموضوعات التى طرقت فى أكثر من عـــدد فى صحفه الأخرى فنقرأ « المقامة المصرية » التى جاء ذكرها فى (الجلسة) ونرى تمثيلية لطيفة من عدة فصول ، وقعت حوادثها « فى ســـوق السلاح بين زمزم بياعة عيش فارشة على الأرض ، وابنهـــا رضيع على يدها ، وديوس أغا قواص تحصيلات الفردة » وهى تعرض لنا صورة من قسوة الضرائب المفروضة على صـــغار الباعة ، وصلف الموظفين وجبروتهم ، وتدخل الأجانب فى أخص مسائلنا ، ثم يمضى المحرر فيقدم المحاورة التقليدية بين (أبو خليل وأبو نضارة) على طريقته المتبعة .

واذا كنا قد لاحظنا أن صحف يعقوب قد هاجمت رياض باشا فى أكثر من موضع ، فان النظارات المصرية تعتبر صحيفة (تخصص) فى الحملة على ذلك الوزير المصرى الذى تسميه

« أبو ريضه » ويدخل فى هذا التخصص أيضا الوزير نوبار ، وقد رأينا فى أحد أعدادها محاورات خاصـة بما نشرته جرائد أوروبا عن « الواد الأهبل والوزير نوبار ورياض » وفيهـا تعليقات شديدة اللهجة تجـاوزت المفهـوم فى ذلك الزمان ، وخاصة تلك التعليقات التى جاءت فى معرض التحـدث عن « محفل محبين الوطن تحت رياسة أبى نظاره معظمه » وقد انفرد هذا العدد تقريبا بما أشرنا اليه وحسبنا هذا الحديث الطويل الممتع عن الخمسين ألف جنيه التى دفعت رشاوى فى تركيا فى سبيل الحصول على فرمان توليـة توفيق للأريكة الخديوية ، بينما الشعب المصرى يتضور جوعا ويموت أبناؤه بالعشرات نتيجة البؤس والفاقة ، وينوء أغنياؤه بالضرائب الباهظة التى أفسدت عليهم طعم الحياة ٠

ويصور يعقوب بن صنوع الخصـومة التى بين رياض وبين الصـحفيين الأحرار ، ومدى العنف الذى اتبعه معهم ، حتى وصم عهده فى شئونهم بأنه عهد المحنة التى لم تر لهـا مصر شبيها لا من قبل ولا من بعد ، فقد أغلق الصحف وصـادرها ونفى كثيرين من الكتاب وأصحاب الجرائد فى سنة ١٨٨٠ وفى مقدمتهم أديب اسحق صـاحب جريدة (مصر) وهى جريدة وطنية أصـدرها هذا الشـاب معبرة عن رأى الحزب الوطنى

ويقص علينا المترجم له قصة رياض مع أديب فى « محاورة بين الواد المرق ووزيره المشخلع » ومفهوم أن « المرق » هنا هـو الخديو توفيق ، الذى اعترض على رياض فى أحد الموضـوعات فقال : ــ

الوزير ــ يظهر أنك اطلعت على جورنال مصر اللى قفلنـاه هنا وفتحوه فى باريز ، ماتسمعش كلام الواد أديب ، ده رجل طويل اللسان يعرف له كلمتين ثلاثة نحو يتباهى بهـم ٠٠ ياريتك سمعت شورتى كنا سقيناه (١) وخلصنا منـه ومن شبكته هو الثانى ، لأن مع الشبان اللى من العينة الخبيثة دى اللى تتجاسر وتحكى فى حق أسيادها ، المعروف ماينفعش ولا يجوش الا بالمتلوف ٠

الواد ــ طيب ونسكت العفريت ده ازاى كمان ؟

١ ــ يقصد سقيناه القهوة المسمومة ٠

الوزير ـ اذا سمعت شورتي وخلصت على أبو شرف وباباراغب وعمر لطفى وعزمي وثابت وحيدر وشاهين والمفتي والبكرى اللى جميعهم أعداك ومايلين لعم أبوك ، يسكت أديب القبيح ، لأنه هو رايد لهم ومحسوبهم ، وفي الواقع احنا ماحنـــاش قدر لسانه ٠٠ كلب ينتش لحمه ، أسكت يا أفندينا أنا منغاظ من الجدع ده واللى يحكمني عليه أقطم زمارة حلقه لأنه هــو اللى بيهيج العالم علينا بكلامه اللى زى الرصاص ٠٠ »

وحقا لم يكن توفيق ولا رياض بكفئين للأديب الـكاتب أديب اسحق ، فقد أصدر فى باريس جريدته باسم (مصر القاهرة) نشر فيها عدة مقالات ، تعتبر فى ذمة التاريـخ من الروائع التى كتبها صحفى فى جريدة سيارة ، وكانت تلك المقالات تعبر عن أمانى الحزب الوطنى وأحرار البلاد ، وفى مقدمتهم شريف باشا وأنصاره من الديمقراطيين ٠

ولا تعنى الحملة على توفيق ورياض وغيرهم من أصحاب الشأن أن ابن صنوع قد انصرف عن اسماعيل ، فذلك أمر لايستقيم مع طبيعة الصحفى المجاهد الذى لاينسى الاساءة ، والذى هاجر ليوظف قلمه فى فضح سيرة الخديو ، وقد قرأنا له فى هـذا المعنى لونا جديدا لم يلجأ اليه من قبل ، حمل فيه على اسماعيل وعرض لحياته فى ايطاليا ، وهى صورة لطيفـة جاءت تحت عنوان (الاصحاح الأول) ننقل منهـــا فقرات من الصفحات الست التى استغرقها هذا الموضوع ٠

ارميا ـ كيف جالس فى نابولى لوحده الأمير ؟
أبو نظارة ـ لأن الناس الظاهرة تبعد عن الخنزير ٠
أرميا ـ من يسكن الآن فى سراياتك الفاخرة يافرعون ؟
أبو نظارة ـ الفيران لأن بنبيعها فى المزاد لدفع الديون ٠
أرميا ـ كيف صبح الخديوى الجليل أذل الأمراء ؟
أبو نظارة ـ لكونه استهزأ بالملوك والوزراء ٠
أرميا ـ يبكى اسماعيل فى الليل ودموعه على خده ٠
أبو نظارة ـ نعم ومن غيظه ٠٠ (١) روحه بيده ٠
أرميا ـ مافضل له معز من محبينه ٠
أبو نظارة ـ لكونه ظلم شعبه وكفر فى دينه ٠

(١) ـ هنا لفظ يعف القلم عن تسجيله ٠

أرميا ـ فى يوم الضيق أصحابه تبروا عنه وفاتوه ٠
أبو نظارة ـ من خوفهم لكونهم فى هلاك العالم ساعدوه ٠
أرميا ـ ارحم يارب وافرج على اسماعيل ٠
أبو نظارة ـ الله لايرحم من خرب وادى النيل ٠
أرميا ـ صبحت الجيزة والجزيرة والعباسية وعابدين ٠
أبو نظارة ـ نايحة على اللى بناها من دمنا فرعون اللعين ٠
أرميا ـ عيب على أهل مصر تفرح وترقص فى الطريق ٠
أبو نظارة ـ معلوم تفرح فى سقوط وطرد قاتل الصديق ٠
أرميا ـ صبحت سراريه مزلات وهى فى مرارة ٠
أبو نظارة ـ بلا هلس ، دى قالت له فى داهية ياشيخ الحارة ٠
أرميا ـ ليلا ونهارا بتندب عليه السرارى الجمالات ٠
أبو نظارة ـ الوالدة باعتهم وبينبسطوا عند العايقات ، ومن وقتها فى مصرنا زاد ، بين الشبان السكر والفساد ، وألطف جدعان دمياط ورشيد واسكندرية ، نزلت على ٠٠ (١) وصرفت من الجنيهات بالميه ، وشافت لها المفاسيد فى مصرنا يوم ، نزلت مع سرارى فرعون فى بحر المحبة عوم ، والكم صبيه اللى أخذها معه فرعون ، لتسليه على همه فى بلاد الماكرون ، بيخطفوها منه فى نابلى الجدعان ، رغما عن أنفه وأنف الخصيان ، ولسبه ياما يشوف من الهوان اسماعيل ، ربنا يعاقب الظالم انما باله طويل ٠

وهكذا يستمر الكاتب مؤرخا لاسماعيل وسيرته فى مصر وايطاليا فى هذا (الاصحاح) الطريف ! ويستطيع قارىء هذا الفصل الممتع أن يدرس تاريخ الخديوالخاص بتفاصيله وماخفى منها كما أنه صور لنا لونا من ألوان الحياة الاجتماعية التى عاشتها مصر فى عهده ، سواء اتصل ذلك بالبيت المالك أو اتصل بعامة الناس ، فقد شرح لنا كثيرا من مفاسد العصر ، موضحا الانهيار فى النظام الاجتماعى الذى أصاب الحاكم والمحكوم على السواء ٠

وقد تفردت مجلة (النظارات المصرية) بهذا اللون من الحوار الغريب فى « أسماء » أصحابه وفى سجعه ، بل لعلها كانت أول صحفه التى نشرت حوارا مسجوعا ، هذا الى تميزها

---

١ ـ هنا لفظ لا يمكن نشره ٠

عن الصحف الثلاث الأولى بنشر أخبار قصيرة عن الحالة المالية والاجتماعية والسياسية والخلقية في مصر ، وكلها تنعى المفاسد التي يرتكبها الخديو توفيق وأنصاره من عمدومشايخ ومديرين ووزراء ، وعلى رأسهم خصم أبي نظارة الأول رياض باشا أو (أبو ريضه) كما تسميه ٠

وقد اتهم يعقوب بن صنوع منذ نفى من مصر بأنه صنيعة البرنس حليم الذى كان يدعو له ويرجو أن يعين أميرا على البلاد ، وقد رأينا في (النظارات المصرية) نفيا لهذه الشائعات التي أطلقها أعوان توفيق ، وقد ذكر أن (الواد الأهبل) أى توفيق ، بعث اليه يطلب عودته الى مصر عارضا عرضا مجزيا من الناحيتين الأدبية والمادية « انما أنا ماقبلتش لعلمي أن الابن أذرط من الأب » ثم يبين في حديثه سخف الشائعة التي تزعم أن حليما أمده بالمال ، وهذا أمر متعذر لأن « اسماعيل ماخلاش أموال عند حليم باشا ينفق بها على محررين جرانيل مثلنا » ويبين أن المال الذى يحتاج اليه يحصل عليه بعرق الجبين « اذ لنا صنايع بنربح منها ونصرف على جرايدنا وهذا لكثرة محبتنا في استقلال وطننا ٠٠ فأنا صنعتي خوجة ألسن ، ولله الحمد لى في باريز تلامذه عديدة ، وبكتب في جرايد انكليزية وفرنساوية ونمساوية وايطالية ولى عليهم مرتبات أيضا ، فهكذا أنا مبسوط ولست مفتقرا لمساعدة أحد ٠٠ » وهذا اعلان صريح وجبت اذاعته ردا على خصوم المواطن المنفى ، وقد اختار له النظارات المصرية ، فانفردت به دون صحفه الأخرى ٠

وقصارى القول في (النظارات المصرية) انها تكاد بحجمها وموضوعاتها ، تنحرف كثيرا عن صحف يعقوب بن صنوع الأخرى ، حتى انه ذكر على أعدادها « السنة الأولى » وكان المفروض أن تكون السنة الرابعة في سيرة مجلاته المختلفة ، لأنه حين أبطل اصدارها ونشر « أبو صفارة » ذكر على الأخيرة (السنة الرابعة) كأن أباصفارة وصل ما انقطع من أبي نظارة زرقا ، وليست صحيفة جديدة كالنظارات المصرية ، وهي أى — أبو صفارة — ليست جديدة في شيء يتصل بالشكل أو الموضوع كما سنرى في الفصل التالي ٠٠

أبو صفّـــارة ..

هى وصل ما انقطع من مجلة أبى نظارة زرقا ، وهى تكملة لها وصـــورة مطابقة في الشـــكل والموضوع . صــــدرت (أبو صفارة) فى السنة الرابعة من تاريخ صـــحف يعقوب بن صنوع ولم ينشر منها الا ثلاثة أعداد فقط ، ثم أمرت الحكومة المصرية بمصادرتها ، وتعذر عليه متابعة اخراجها بهذا الاسم، كما أشرنا الى ذلك فى أكثر من موضع ، وهى كما يقول محررها « جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية ، يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية ، منشئها محب الاســـتقلال والحرية » .

صدر العدد الأول من (أبوصفارة) فى ٤ يونيةسنة ١٨٨٠، أى بعد اختفاء (النظارات المصرية) بنحو ثلاثة أشهر ، وقد ذكر لنا يعقوب أسباب مصادرة واغلاق صحيفته « النظارات المصرية » ذكرها باسم غريب ، قال انها (الغدارات المصرية) وكان فى وسعنا أن نعتبر ذلك خطأ فى النقل لولا أن الاسم تكرر فى أكثر من موضع ، حتى انه أطلق على اسم صـــحفه (الغدارات) و (الغدارة الزرقاء) ويحدثنا عن آخر عدد من النظارات المصرية على لسان مدير البوسطة « ... انما هـــو يكون فرق الجرانيل ــ على جميع سكان وادى النيل ــ والعدد العاشر من الغدارات المصرية ــ اللى أمرنا بتعطيله لكون عليه صورة حليم ــ فرقوا يعنى باعوا منه عشرة آلاف وخمسمية ... » ولم تنشر لحليم صورة الا فى صدر العدد العاشر من النظارات المصرية .

ومما يؤكد وجهة نظرنا فى أن يعقوبا انمايعنى (بالغدارات) صحفه المختلفة قوله « أنا صار لى ثلاث سنوات ــ باقول لـكم يا أخوانى وأعيد ــ فى الغدارة الزرقاء وفى الغـــدارات ... » ثم يقول فى مكان آخر عن شعور مواطنيه حين ترامى اليهـــم مصادرة النظارات المصرية واغلاقها « واحنا ياشيخ كنا فى غاية القلق عليك ، وكان اللى يضربنا بالفولة تطق ، لما شـــفنا فى

الجرانيل المحلية أن الغدارات المصرية صار تعطيلها .. وفى الواقع ولو أنهم عطلوا الغدارات بعد العدد التاسع ـ أنت ماخيبتش أملنا وبرضك نشرت العدد العاشر ورسمت عليه صورة حبيبنا أبو الحلم الشريفة ، وأرسلت لنا منها آلافات من النسخ .. وحصل لنا غاية الفرح والسرور بمطالعتها لكونها مبشرة بخلع الواد الأهبل وأبو ريضه اللعين .. » وهذه هى محتويات العدد العاشر من النظارات المصرية التى طبعت وفى صدرها صورة حليم وفى طياتها حديث عن أمانى يعقوب فى عزل توفيق ..

وقصارى القول فى هذه الأعداد الثلاثة من (أبوصفارة) أنها مضت على سجية مجلات المترجم له الأولى ، ليس فيها جديد لافى صورها ولا فى موضوعاتها ، غير أنها اشتملت على اتفاق مع صحفى معروف وخلاف مع صحفى كبير آخر ، أما الاتفاق والاعجاب فيتصلان بالقس لويس صابونجى صاحب مجلة النحلة التى كانت تصدر فى لندن اذ ذاك فقد نشر صابونجى مقالا باللغة الانجليزية أرضى يعقوب بن صنوع فأشاد بالمقال وصاحبه ، وكتب يقول « ومن أراد منكم يقرأها يا اخوان ـ فيجدها مترجمة بالعربى بأفصح لسان ـ فى جريدة النحلة عدوة الكسل ـ اللى كلامها أحلى من العسل ـ ومحررها بلندره الفاضل سيدى الصابونجى اللطيف ـ فلكونه صابونجى كلامه نقى ونظيف ـ وجرناله مملوء من مواعظ وحكم فريدة ـ ومقالات فى الآداب والعلوم والفنون مفيدة ـ ترشد القارىء فى طريق التمدن والكمال ـ وتطرب الشاعر لكونها عذبة لذيذة الأقوال ـ حفظ البارى من كل شر منشيها ـ وطرح الله لنا البركة فيها ».

لويس صابونجى وكان فى مقدمة من كتب فى صحف يعقوب بن صنوع

بهذا الأسلوب الرقيق ، وبهذه المشاعر الدقيقة أكرم كاتبنا زميله فى لندن ، لأنه دأب على نصرة القضية المصرية والدفاع عنها فى شتى المناسبات ، أما الصحفى الآخر الذى حمل عليه يعقوب حملة شعواء فهو واحد من أعلام الصحافة العربية الذين لاينكر فضلهم ، هو أحمد فارس الشـــدياق صاحب جريدة (الجوائب) كبرى صحف الشرق العربية التى كانت تصدر فى الآستانة ، وقد كان الشدياق صديقا للخديو اســـماعيل وأبى أن ينشر مقالا رسميا من الحكومة التركية يتضمن الاساءة الى صديقه ، فعطلت صحيفته لذلك عدة شهور .

وقد دأب الشدياق على تحية ابن صديقه خديو مصر توفيق فى صحيفة (الجوائب) فنشر له يعقوب بن صنوع كتابا مفتوحا بعنوان (من أبى صفارة ببـــاريس الى حضرة محرر الجوائب بالاستانة) جاء فيه « بالله عليك ياشيخى يابو لحية بيضــــاء محترمة تفضك من كتابة مقالات لاينتج لشرفك منها الا العار والاحتقار ـ انت بسم الله ماشاء الله رجل عالم وفاضل ، وأخو العلم حبيب الحق وعدو الباطل ، فكيف تحط الساق على الساق وتنجس قلمـــك بتحرير أقوال فى مدح من لايليق ـ مثـــل رياض وتوفيق ؟ ده كلام عيب ياسى الشيخ ، وما حدش من زملائك يرضى به خصوصا داعيك اللى يوقرك ويعرف مقامك ـ أهو باقول لك النوبة دى بالمعروف يعنى بالتى هى أحسن ، واذا ماقبلتش النصيحة والله ألتزم أدرج فى جرنالى القادم جميع مقالات أبناء مصر فى حقك يافارس ، وتبقى من غير مؤاخـــذة هتيكة وجرسة .. » ثم لايكتفى أبو نظارة بتهديد الشدياق بل ينشر مقالا مقذعا فيه ، استغرق صفحة كاملة ، معتـــذرا بأنه اضطر الى نشره لأن صاحبه « أقسم بشرف والد وجـــد يعقوب » أن ينشر بمجرد وصوله

واحتوى العددان الثاني والثالث حديثـــا رائعا عن « بنى موسى

العقاد والضـــابطان أمام الواد الأهبل ووزيره » وهو يقص في هذين العددين ماصنعته الحكومة مع موسى العقاد الوطني المصري المعروف، ومدى الظلم الذى أوقعته به وبمجموعة من ضباط الجيش، ويعرض لنا دور رياض باشا في هذه المأساة ، سواء بالالفاظ أو بالرسوم ، في أسلوب غاية في العنـــف والشـــدة ، الأمر الذى ترتب عليـــه منعهـــا من الدخول الى الديار المصرية ،



صاحب الجوائب ، صديق اسماعيل وخصم صنوع

وفى ذلك يقـــول أبو نظارة « ٠٠ قلت ياربى نور عقـــلى وفهمى ، وانصرنى على الواد الأمرد مصطفى فهمى ، اللى أمر بتعطيل صفارتى البهية ، العزيزة عند الشـــبان المصرية ، فأجابنى من السماءسيدناجبرائيل ، وقاللى ياحبيب وادى النيل اعلم أن أبو ريضة اللعين والواد ، لما قرءوا الثلاثة أعداد ، اللى نشرتهم فى الصفارة ، طلع الدم فى راسهم وعملوا غارة ٠٠ فحالا وأمر يرف للبوسطة الفرنساوية بحجز العدد الثالث من الصفارة المحمية ، انما سعادة مدير البوسطة كان من زمان فرقها ، ووكيلى أوغسطينى على الزبائن وزعها ، فأرسل من وقتها من غيظه ناظر الخارجية ، صـــورة الدكريتو للجرائد المحلية ، وبه يقول ان من حيث جرنال أبو صفارة ، هو من تحرير الشيخ أبو نضاره ، فلزم منع دخوله فى الديار المصرية لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية ٠٠»

وقد كان يعقوب عنيفا حقا فى حملته على الخديو وحكومته ، غير أنه كتب فى موسى العقاد خير ماكتب فى مواطن يستحق تقدير وطنه ، وقد استغرق مدح العقاد الصفحة الأولى ومعظم

الصفحة الثانية من العدد الثاني .

وقد جاء في هذا المقال « أول كل شيء ياحبيبي يامصري ، يانور عيني يافريد عصري ، يافخر أبنـــاء الشرق أجمعين ، أهنيك على عدم خوفك من الظالمين ، وهم الواد الأهبل الرذيل ، ووزيره عدو وادي النيل .. ياما حصل لي انشراح وسرور ، حينما بلغني أن سي موسى المشهور ، الرجل الحر حبيب الحق ، خلى أبو ريضه من الغيظ يطق .. والله عفارم عليك ياعقاد ، ماتخافشي من أبو ريضة والواد . دول هوانم ماهمش رجال ، ويظهر من فعلهم أنهم أندال ، لأنه لو كانوا صحيح حكام ، ماكانوش يهجموا عليك في الظلام ، ويهينوك ياسيدي ياشريف ، انما برضه ربك حليم لطيف ، ينجيك من أيدي هؤلاء الكلاب ، وللنصر يفتح لك ألف باب » .

ثم يبلغ الثناء على العقاد أقصـــاه ، وذلك في قوله « انت استمر على دا الشهامة والجداعة وكن ميقن ياحبيب ، أن الفرج جاي من قريب ، ماعليهشي انت تحمـــل جور الظالمين ، يلطف يا أبناء مصر رب العالمين ، دي جميع الجرانيل الفرنجية ، كتبت في حقك مقالات مدحية ، ومن جملة ماقالت هؤلاء الجرانيل، قالت ان موسى الأول كليم الله نجا أبناء اسرائيل من المظالم الفرعونية ، وموسى الثاني سوف يخلص الديار المصرية .. »

وهكذا سار أبو نظارة على هذا الدرب في معالجة الشـــئون السياسة ، وبيان قيم الرجال ، يهجو خصومه أحيانا هجاء خلا من العفة ونزل الى الحضيض في المعاني والعبارات حتى ليصـــدمنا ذلك ، فنأبى تسجيله في مطبوع ، ويمدح أصدقاءه فيغلو في ذلك غلوا يشكك في قدر الثناء ، غير أنه في الحالين يترك لنا تفسيرا للحوادث وتصويرا للأشخاص ، لا يمكن أن نغض الطرف عن نواحي الصدق فيهما ونحن نفسر التاريخ على ضوء الوثائق الشعبية ، وأبو نظارة وثيقة شعبية جديرة بالنظر والاعتبار .

أبو زمارة ..

أبو زمارة هي احـــدى مجلات الضرورة ، ان صح التعبير ، الضرورة التي فرضت على يعقـــوب بن صنوع أن يغـــير في أســــماء صحفه ليســـتطيع ادخالهـــا الى مصر ، وأبو زمارة من حيث الشكل والموضوع صورة مطابقة لأبي صفارة وامتداد لأبي نظارة زرقاء مع اختلاف في الرسوم والاشكال ، ولكنه اختلاف يسير ، ولولا تغيير الاسم لعز التفريق بين الصـــحيفة باسمها الأصيل أو باسمها الدخيل ، وقد التزم المحرر في عددها الأول ، الأقوال العامية المسجوعة كما كانت الحـــال في الصحف الصـــغيرة التي أصــــدرها تحايلا على الحــكومة وعيونها ..

وتضمنت الافتتاحيــــة بيـــانات طريفــــة ننشرها كاملة ، « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أنبيائه أجمعين . أما بعد فيقول العبد الحقير أبو زمارة . لما بلغني بأن صدر أمر من ناظر الخارجيـــة . بقفش وكسر الصفارة . الساعية في استحصال التمـــدن والحرية . قلت يا ربي نور عقلي وفهمي . وانصرني على الواد الأمرد مصطفى فهمي . اللي أمر بتعطيل صفارتي البهية . العزيزة عند الشبان المصرية . فأجابني من السماء سيدنا جبرائيـــل . وقال لي ياحبيب وادي النيل اعلم أن أبو ريضة اللعين والواد . لمـــا قرأوا الثلاثة أعداد اللي نشرتهم في الصفارة . طلع الدم في راسهم وعملوا عليهم غارة . وبعتوا ندهوا الواد مصطفى . وبالأقلام ورموا له الخد والقفا . وقالوا له شابرق شابرق . فارتعش فهمي .. (١) في لباسه . وخاف من الظالمين على فقد راسه . فحالا وأمر يرف للبوسطه الفرنساوية . لحجز العـــدد الثالث من الصفارة المحمية . انما سعادة مدير البوسطة كان من زمان فرقها . ووكيلي أوغسطيني على الزباين وزعهـــا . فأرسل من وقتها من غيظه ناظر الخارجية . صورة الديكريتو

١ ـ هنا لفظ أسقطناه لسبب لايخفى على القارىء !! ..

للجرائد المحلية .. وبه يقول أن من حيث جرنال أبو صفارة . هو تحرير الشيخ أبو نضارة . فيلزم منع دخوله فى الديار المصرية . لأنه ضد الحكومة ومهيج الرعية . فتأسفوا أبنــاء مصر أجمعين . وظنوا أن علينا انتصر الظالمين ، انما فشروا والله العظيم ... »

غير أنه يعلق على ذلك بقوله « .. برضنا احنا نغيظهم بجاه الحليم العليم ، وبننزل السوق ونشترى لنا قطعة زمارة ، فى الصوت والطرب تفوق الصفارة ، ونزمر فيها أدوار عجيبة ، تنحمق من سمعها الحضرة الكئيبة .. وبمطالعته يسلى أحبابه على همهم ، وينسيهم كربهم وغمهم » ثم يعتــذر المحرر لقرائه بأنه سيستعمل فى التعبير عن أفكاره « العربى الدارج الصريح المستعمل عند الخاص والعام ، بين أبنــاء مصر الـكرام » وهو يذكر الموضوعات والمحاورات التى سينشرها وهى على النهج القديم ، ثم يقول ان مواطنيه طلبوا اليه « انفضلت فىجرنالك حتة بيضا ، شك لنا فيها سيرة الواد وأبو ريضه .. » غير أن الكاتب يطلب من مواطنيه مساعدته فى تحرير ، أبو زمارة . « وان حد فيكم تفضل علينا بقصيدة ، أو بمقالةعظيمةجيدة، فى حق رياض والواد وفلسن ، نقول له ألف بركاتورسن.. »

وهكذا حقق يعقوب فى الأعداد الثلاثة التى طبعت منهذه الصحيفة سياسته التى وعد بها ، وقد خص الخديو توفيــق بنقده العنيف الساخر المتصل ، وشرح ــ فيما شرح ــ موقفه من أبيه وقبض يده عنه ، واعتبر ذلك زلة لاتليق بكريم « فأن قلتوا لى ان المطرود يستاهل ده كله ، أجاوبكم أن يكفيه عزله وزله ، انما ابنــه اللى اشــــترى له الوراثة بملايين ماكانش لازم يعامله كالأجنبيين ، أنا مش قصــدى أحامى عن المطرود انما مرادى أوريكم خساسة المولود ، بقى اللى ماله خير فى أبوه وعائلته ، كيف يكون له خير فى وطنه ورعيته ، اخص عليك ياواد يافردريك ، والله خسارة الخديوية فيك » .

ويحدثنا فى العدد الثــانى من (أبو زمارة) عن وصــــول العدد الأول واستقبال رياض باشا له ، وهو حــديث ممتــع طريف ، غير أنه لاينشر لكثرة مافيه من عبارات لاتليق بأن تكون فى مطبوع ، الا أنه يومىء الى أن الصحيفة كانت فى كل

يد بالرغم من الحكومة وعيونها ، كما يتميز العدد الثانى من (أبو زمارة) بكثرة المراسلات التى جاءت الى المحرر من مصر ، وهى فى معظمها ركيكة العبارة ، فلا هى عربية ولا هى عامية، كما أن موضوعاتها فى عمومها تافهة لاتستحق النشر أو التعليق ..

ويمتاز العدد الثالث وهو الأخير من (أبو زمارة) بأن المحرر قد ضاق ذرعا بمواطنيه وتكاسلهم عن أداء واجبهم نحو التخلص من الخديو توفيق ، وأجرى ذلك على لسان « الحدق » فقال « أهو حاول المسكين أربع سنين كأنه بينفخ فى قربة مقطوعة والعالم بيتعجب وتقول ياترى بيجيب الكلام ده كله منين ؟ احنا بس نعرف نقرأ جرانيله ونقول الله الله ياكلام حلو ، يا أفكار عجيبة وما أشبه .. » ثم يقول يعقوب على لسان (الحدق) مرة أخرى ، انه خطب وسط حشد من خاصة الفرنسيين مبينا جور توفيق وجبروته وظلمه لرعيته ، حتى بكى من فرط التأثر ، فاذا ترك منبر الخطابة ، سأله البعض ، « ان كان الأمر هكذا ، الأهالى ساكتة ليه ؟ وليه بتعمل زفة وزينة فى يوم عيد الواد .. ؟ بقى لازم يكونوا أولاد مصر أنذال والانذال مايستحقوشى ان محبين الشرق والحرية يساعدوهم » !

وهكذا يزحم يعقوب بن صنوع صحيفته (أبو زمارة) بشكوى مرة من تهاون مواطنيه فى طلب حقوقهم المشروعة ، والسعى لاعلاء كلمة الحق والحرية ، وسوف نرى على مر السنين أن هذه الشكوى كانت متصلة وقوية ، لأن القوم رضوا الذل جيلا بعد جيل ، ولم يفرغوا منه بالرغم من جهاد الأحرار فى مصر وخارج مصر سنوات وسنوات .

وهو دائب السعى فى الحملة على رياض باشا أو « أبوريضه » كما يسميه ، محمسا مواطنيه كى يقضوا على عيون هذا الوزير الذين أفسدوا ذمم الناس وأخلاقهم ، وملأوا النفوس رعبا وخوفا ، وقد بين ذلك كله فى محاورة بين « الحدق ومجدع فى حديقة الأزبكية » وننشر طرفا منها هنا كخاتمة توضح ماكانت تسعى اليه (الزمارة) عند قرائها العديدين .

مجدع ـ ان كنت صحيح حدق وبتفهم الصورة ايه ، قل لى

أمال امنه الأمور تنصلح والأحوال تتعدل ، لأن الكيفية اذا استمرت على ماهى الناس عليه قول عليها عدمت والسلام ، لأن ذوات وأعيان ووجوه العاصمة المصرية مابيتيسرشي لأحدمنهم أنه يروح يطل على صاحبــــه ، وده كلــه من كـثرة أولاد .. البصاصين المفترين الساعين فى قفل بيوت العـــالم وسبب الهلاك ده كله يكون أبو ريضه لأنه حلف بأبوه الوزان أن يخرب ويحبس الناس الأبرياء خذاه الله ..

الخلق ـ وانت التانى ان كنت مجدع صحيـــح كنت مع كم من اخوانك تزنق كم بصاص (١) من دول وترقعهم علقة بنت هرمه كانوا يحرموا ، انما انت وأصحابك خسارة اسم مجدع فيكم ، بس تعرفوا تتكلموا فى الهوا ..

وهكذا يمضى يعقوب بن صنوع على سجيته فى نشر المحاورات فى الزمارة كما نشرها فى غيرها من صحفه منذ أنشأ تلك الصحف الى يوم قضى ، لاهوادة فى خصومة من خاصمهم ، ولا تراجع فى ايمانه بمن وثق منهـــم ، صنعة الـكاتب الأبى النزيه ، والصحفى النادر المثال فى تاريخ عز فيه قرين لذلك الكاتب المناضل ، وقل من يقف الى جانبه فى صفوف الأحرار .

---

١ ـ يقصد المخبرين .

الحاوى ..

وهذه مجلة أخرى من مجلات الضرورة ، الحـاوى ... وقد صدرت عدة أعداد ، كل خمسة عشر يوما تصدر نسخة منها ، وقد جرت فى سياستها ومزاجها على النهج الذى نشأ عليه أبو نظارة فى صحفه المختلفة ، ويلاحظ أنه لم يغير من مجلات الضرورة تلك الا أسماءها ورءوس الصفحة الأولى فيها حتى تستخفى معالم الروح وراء الرسوم والاشكال ، ولا تفطن عيون الحكومة المصرية اليها ، وان لم يغير سنوات الصدور التى سجلت على تلك الرءوس ، فالحاوى صدرت فى السنة الخامسة من حيـاة صحفه الكثار ، وان كان نصيبها فى رسالة الرجل عـــدة أسابيع ..

صدرت « الحاوى الكاوى اللى يطلع من البحر الداوى عجايب النكت للكسلان والغاوى ويرمى الغشاش فى الجب الهاوى » يوم الجمعة ٥ فبراير سنة ١٨٨١ ، وقد سبقت صدورها كراسة صغيرة الحجم سميت (مقـــدمة الحاوى) وهى فى مائة واثنتين وعشرين صفحة ، تضمنت كثيرا من الموضوعات المختلفـة ، فقرأنا فصلا عن مجلة (الحاوى) بلهجة الشآميين زاخرا بفضائح الحكم فى مصر ، وفصولا أخرى عن السياسة الخارجية التى لها اتصال مباشر بالسياسة المصرية ، ثم عرض الكاتب « مخاطبات » بينه وبين تونسيين ، وهى من الطرائف الجديدة فى صحفـه الطارئة ، ثم عنى فى هذه المقدمة ، ولعلها المرة الأولى ، بأمور تونس ، ولعل أسباب ذلك ترجع الى الصلات التى بدأ يقيمها المترجم له مع باى تونس ومع غيره من أمراء الشرق ، كمـا ستفصح عن ذلك صحفه فى مستقبل الأيام ، وقد أكد هذا ، الفصل الممتع الذى نشره فى تعريب الألفاظ التونسية الظريفة ، هذا الى مجموعة ضخمة من الأخبار المتفرقة عن شئون مصر الداخلية كتعيين المديرين والمحافظين وما الى ذلك .

وقد طبعت هذه المقدمة فى كراسة من الحجم الصغير ، ولم يشر صاحبها الى أسباب طبعها ، كما لم يذكر فى أعطافها موعد

صدورها ، ولم يعرف ان كانت هذه المقدمة قد نشرت أجزاء أو طبعت جملة ، فأنه لم يرقمها ، غير أنها كتبت بعدة خطوط وطبعت على الحجر ، وكان أسلوبها فى كثير من صفحاتها أسلوبا عربيا صحيحا ، وان غلب عليه طابع الكاتب الساخر والممثل الأصيل ..

وتتضمن الصفحات الأولى من (مقدمة الحاوى) الأهداف التى صدرت لتحقيقها المجلة نفسها ، فيقول الكاتب « أول امبارح ورد لى من الحدق جواب .. وقال لى فيه يا حاوى طلع من الجراب .. فتأملت فى قوله وفهمت الكلام .. وحالا نشرت الحاوى لسادتى الكرام .. ودرجت فيه حوادث برنا الكريم .. وذكرت فيه اسم حبيبكم الحليم .. وزينته بأخبار الأمم الافرنجية .. المتمتعين بالسعادة والحرية .. » .. الى أن يقول : « بقى كل شهر مرة بيصدر الحاوى ، ويخاطب الأحباب بالعربى مش بالفرنساوى .. »

وقد عنيت (مقدمة الحاوى) عناية ملحوظة بحوادث الخارج وان كانت قد دأبت على روايتها رابطة بينها وبين حوادث مصر فهو يحدثنا مثلا عن المؤآمرة التى تسعى الى تنفيذها ألمانيا ضد فرنسا ، والجهد الذى تبذله للايقاع بين ايطاليا وبين وطنه الثانى ، فيقول : « .. عمنا بنزرط « بسمارك » الثعلبى البروسيانى ، لما شاف أن جمهورية فرنسا المعظمة كلما لها لله الحمد فى التقدم والثروة والنجاح رايح بعيد عنك يطق من الغيظ ، وقاعد يبحث لها ليلا ونهارا على مشكل يعنى خناقة من تحت رجلين الفراخ ، فأراد يرمى فتنة بينها وبين دولة ايطاليا المحمية ، ويجعل مملكة تونس سلم ، انما الباى الذكى اللى يفهم الصورة ايه ، ما هوش مثل الولد الأهبل تور الله فى برسيمه فهم العبارة وفقس ملعوب بنزرط وراضى الفريقين وفض المشكل ، والله جدع وبنزرط طلع قفاه يقمر عيش .. »

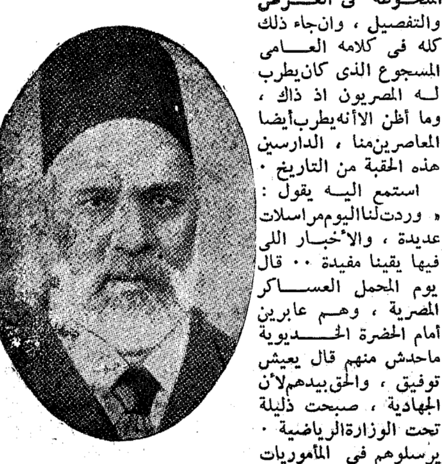
فاذا انتقلنا الى مجلة الحاوى نفسها وجدنا روحا فى علاج الموضوعات تختلف عن المقدمة بعض الشىء ، غير أن مجلة الحاوى تأخرت شهرا عن الصدور لأسباب خارجة عن مقدور صاحبها « اصحوا تصدقوا يا سادة من قال ــ ان صاحبكم الحاوى مات أو خرسوه الظالمون بالمال ــ لعدم ظهوره فى الشهر اللى فات ــ

الحاوى صاحب شرف يا خلان ـ وكان يصدر جرناله لو لم يكن عيان ـ انما الشهر ده باذن البارى ـ يبهج بنوادره مرتين القارى ـ وينزل كالعادة بجريدته على حضرة الوزير والواد ـ اللى عاملين صنعتهم نهب أموال العباد ـ ويدرج فى هذا العدد أخبار محفل ميدان الحرية ـ ويشهر بين الأمم شجاعة الشبان المصرية ‥ » ‥ ثم يتحدث فى بقية هذا العدد بطريقته المعروفة عن غليان الجيش فى مصر ، واستبداد الحكومة الرياضية فى علاج شئون الوطن ‥

وتتميز أعداد الحاوى القليلة التى أصدرها بتسجيل مقدمات الثورة العسكرية ، بل ان ما كتبه فيها يعتبر فى ذمة المؤرخ فصولا ممتعة لهذه الفترة من تاريخ مصر الحديث ، مع الدقة الملحوظة فى العرض والتفصيل ، وان جاء ذلك كله فى كلامه العامى المسجوع الذى كان يطرب له المصريون اذ ذاك ، وما أظن الا أنه يطرب أيضا المعاصرين منا ، الدارسين هذه الحقبة من التاريخ .

استمع اليه يقول :

« وردت لنا اليوم مراسلات عديدة ، والأخبار اللى فيها يقينا مفيدة ‥ قال يوم المحمل العساكر المصرية ، وهم عابرين أمام الحضرة الخديوية ماحدش منهم قال يعيش توفيق ، والحق بيدهم لأن الجهادية ، صبحت ذليلة تحت الوزارة الرياضية . يرسلوهم فى المأموريات اللى ماينتج منها الا العار للممات ، وللشركس يعطوا



سيد العرب ـ احمد عرابى

الرتب العظيمة . والسرارى الحلوة والانعامات الكريمة، لكونهم من جنس ناظر الحربية ، مساح جوخ الحضرة الرياضية ، فزعلت من الأمر ده الضابطان ، وأرادوا يوروا العالم أنهم جدعان .. انما لكونهم أصحاب عقل صحيح ، وسعيهم دايما مليح ، تشكوا للواد وللوزير ، من ناظرهم عديم التدبير » ..

ثم يتحدث الكاتب عن عثمان رفعت وكيل الحربية « العجوز المدهول المخرف المجنون » .. وما كتبه الضباط المسئولون لممثلي الدول الأجنبية ليطمئنوا على رعاياهم ، مبينين لهم أن أي خطوة ايجابية منهم لا تعني أنها موجهة الى الأجانب « وده فكر عظيم لأن الدول آدى مرادهم ـ وقصدهم يدخلوا قطرنا بحجة أنهم يحاموا على أولاد بلادهم » .. وهكذا يفصل لنا أبو نظارة قصة اقالة وزير الحربية وتعيين البارودي مكانه في جميع صفحات المجلة ، في دقة تامة لا تختلف أبدا مع أي مصدر صادق من مصادر التاريخ ..



ممثل الجيش يشكو لشيخ التمن أي السلطان تصرفات الخديو السيئة

وقصارى القول في مجلة الحاوى ، انها تفقد بهاءها اذا أنكرنا مقام (مقدمتها) في بيان قدرها ، فالمقدمة عنوان حسن جدا للمجلة نفسها ، بل عندي أعز وأكرم من (الحاوى) نظرا لما احتوت عليه من موضوعات دقيقة ، واشتملت عليه من

صراحة فى تبكيت المواطنين لانصرافهم عن الجد والعمل ، وقبولهم الذل والخسف . هذا الى آن المقدمة تشير بوضوح الى السياسة المرسومة فى توثيق العلائق بين مصر وفرنسا ، فان المترجم له قد سفر فى هذه المقدمة عما يختلج به صدره من حب عميق لفرنسا ، وتكريم لرسالتها بين الأمم والشعوب ، وسوف نلقى ذلك ، من الآن فصاعدا ، واضحا ظاهرا فى جميع ما كتبه أو قاله يعقوب بن صنوع ..

هذا عن (المقدمة) أما عن الحاوى نفسها فقد كادت تتخصص فى الثورة العرابية ، ولم يكن فى محاوراتها أو موضوعاتها الأخرى شيء غير هذا الحادث الذى كانت له مقدمات ونتائج ، سجلتها الحاوى فى تفصيل جميل ، ودعت المواطنين الى التشبه بضباطهم وجنودهم الشجعان وطرد حكومة « الواد الاهبل » والقبض على (الواد) نفسه ومحاكمته ، وان الكاتب لينذر مواطنيه بأنه « ان ما خلصتوا من الواد ورياض يا جدعان ـ أحلف بحب الوطن والحرية ـ وشجاعة التلامذه والجهادية بأنى أمزع الجرنال وأكسر النضارة ـ وأبيع خرج الزمارة والصفارة ـ بقى فوقوا يا أولادى من غفلتكم وورونى أمال شطارتكم ـ انما يكون الامر عن قريب ـ وأنا حالا أجيكم بالحبيب » ..

أبو نظارة ..
لسان حال الأمة المصرية

منذ شهر ابريل سنة ١٨٨١ حتى توقف صـــدور صحفه فى سنة ١٩١٠ صدرت (أبو نظارة وأبو نظارة زرقا وأبو نظارة) وهى أسماء ثلاثة لصحيفة واحدة ، غير أنها أسماء متقاربة الشبه ، غلب عليها الاسم الأخير الذى عاشت به الصـــحيفة أكثر من عشرين عاما .

صدرت أبو نظارة صورة صادقة لما سبقها من صحف ، ولم يتغير العنصر النفسى فيها ولم يطرأ عليه قط وهن يسقط من قدرها أو يقلل من مقامها فى تاريخ الصحافة المصرية بل ان عصرها الذهبى مقبل بعد قليل .

وقد صدرت (أبو نظارة) بعد أن صادرت الحكومة المصرية الحاوى ، وعاقبت بالنفى بعض من حملها ،، وفى ذلك يقول يعقوب بن صنوع مخاطبا الخديو توفيق « قد أمر وزيركم بسوء تدبيره المستحسن لدى سموكم بنفى شخصين من معتبرين البلد بسبب وجود جريدتى معهما .» .. وقد نشر العــــدد الأول من « أبو نظارة » فى السنة الخامسة من صحف المترجم له ، وكانت تصدر كل عشرة أيام أو كل أسبوعين ، وقليلا ما كانت تزيد المدة على أسبوعين بين العدد والعدد ، وكانت بعض الأعداد تصدر فى ثمانى صفحات ، وبعضها يصدر فى اثنتى عشرة صفحة ، أما بقية الأعداد فكانت من أربع صفحات كغيرها من صحفه الأخرى ، ولها شعار هو « لسان حال الأمة المصرية الحرة » ..

وتتميز أبو نظارة بالمقالات الأدبية التى نشرها يعقوب خاصة بالثورة العرابية ابتداء من العدد الثانى فى سنتها الخامســـة بعنوان (الصيحة الأولى) ، وهو يبصر فيها مواطنيــــه بخطر تدخل الانجليز ، ويدعوهم الى التآلف والتكاتف والاتحاد لانقاذ شرفهم وتحسين أحوالهم المالية والسياسة والاجتماعية ، وهو

الخطاب خاصة الى علمائها فيخاطب فيها الأمة عامة ويوجه بعض الصيحات ..

ويضيق الكاتب بمواطنيه وتكاسلهم ، فينشر بابا جديدا بعنوان (الآزفة) ويحرر فيه آزفة بعد آزفة ، يعلن فيه سخطه على رجال مصر الذين سلموا فى حقوقهم ، فجعلوا أنفسهم مطايا للوزراء والخديويين ، الذين استنزفوا أموال مواطنيهم وقبلوا الذل فأضحوا عبيدا وسط أمم لا سيد فيها ولا مسود ، وقد حرر هذه الآزفات بأسلوب عربى ممتع ، قلما نجد له نظيرا فى صحف يعقوب المختلفة ..

وبالرغم من اعجاب يعقوب بشريف باشا فانه لم يتردد فى الحملة عليه حملة شعواء حين أصدر قانون المطبوعات ، وفيه من القيود مالا يهضمه تفكير الأديب المنفى فى عاصمة الحرية ، وان كان هذا القانون قد استقبل فى مصر نفسها استقبالا حسنا وتظهر هذه الحملة العنيفة فى رسم صدر به الصفحة الأولى ، وفيه يكمم شريف أفواه الكتاب ويربط أياديهم أمام ممثلى الأجانب الذين رحبوا بهذا الضغط ، ويقول أبو نظارة تعليقا على ذلك « اكسروا أقلامنا وسدوا أفمامنا برضنا ننتصر على أخصامنا ونكسر أنف أظلم حكامنا والرب كريم يسعد أيامنا » ..

قصد المترجم له مما كتب ومما نشر من صحف أن يبصر مواطنيه بما لايعلمونه من خبايا السياسة المصرية وحوادث البلاد الداخلية التى كان يتعذر على صحف مصر اعلانها بأية صورة من الصور والا تعرضت للمصادرة والاغلاق غير أن يعقوب بن صنوع ـ كصاحب رأى ـ كان يمثل المعارضة المتطرفة ، فهو يمدح شريف باشا حين كان شريف بعيدا عن السلطان ، فاذا ولى أمور الحكم وأفسح المجال للبرلمان ، ورضى أكثر الناس عن الحكومة الشريفية لم يرض أبو نظارة بل كان ضمن الساخطين ، لأن شريفا لم يخاصم الخديو توفيق ، ولم يكن من طبائع الأشياء أن يخاصم الوزير الدستورى أميرا نزل عند رأيه فى احترام الدستور ، ووعد بالتمكين للحياة الدستورية فى هدوء ودون قلقلة قد تفسد القضية المصرية وتسىء الى مقدرات البلاد ..

ان ابن صنوع لا يؤمن بهذا ، لذلك نراه يسخر من شريف

ويسخر حتى من حيـــاته الخاصة ، فقد كان الوزير يهـوى (البلياردو) ، ورأى الجيل هـــذه الهواية ســــوأة تذكرها له الصحف الخصيمة كلما هاجمته سواء قبيل الاحتلال أو بعــده ، وكان من بين الصحفيين الذين ذهبوا هذا المذهب يعقوب بن صنوع ، فهو يكتب متخيلا ساحرا أراد أن يخلص مصر من توفيق وشريف تلبية لرغبة يعقوب « فكذا مرادى يا شيطان ، بأنك تأمر اثنين من أهل الجان ، واحد يخطف الواد الأهبـــل ويرميه ، فى نابولى يا كل مقرونه عند أبيه ، والثانى يأخذ بلطف أبو شرف رئيس الوزارة ، ويسلمه فى يد أبى نظارة ، يلعب معه بلياردو بباريس » ..

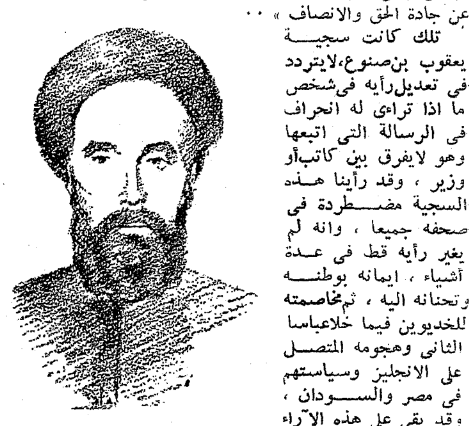
ولم يخل عدد من أعداد (أبو نظارة .. لسان حال الأمة المصرية الحرة) من نقد لتصرفات الحكومة الشريفية وخاصـــة حملته الشديدة على « قانون المطابع والجرائد » .. وهكذا وقف يعقوب موقف المتطرفـين فى مصر من شريف باشـــا الرجل الدستورى ، الذى كانت صحافة مصر وصحافة ابن صنوع من قبل تدعو له وترجو أن يكون على رأس الحكومة ، فاذا تم لهـــم الرجاء لم تعجبهـم سياســـته المعتدلة ، ولم يرضوا عن أساليب حكمه ،فهوجم برفق فىمصر ، واشتد عليه الهجوم فى باريس ..

وليس غريبا على أبى نظارة هذا المذهب فى الرضاء والسخط على الناس ، فهو شديد الحساسية حتى ليتناقض فى رأيه أكثر من مرة فى سنة واحدة ، ويتأثر كطبيعة المصريين بالحوادث تأثرا سريعا يفسد عليه الأحكام فى بعض الأحيان ، ومن أجمل الأمثلة على ذلك قصته مع السيد عبد الله النديم ، انه يراه فى مارس ۱۸۸۲ علما من الأعلام فيقول « السلام عليك ياسى نديم ياقرة عين قراء جريدة الطائف ، الله الله على ذوقك الســليم ، يا حاوى الظرائف واللطائف ، أحلف بحب الوطن يا عم ، أن كلما أتى جرنالك يزول عنى الهم من حلاوة أقوالك ، ومقالاتك الأدبية نورت مصرنا ، ونبذاتك السياسية جددت عصرنا ، وحيـــاة دقنك يا عزيزى ، من غشبقى فى فصـــولك الفريدة باترجمها بالفرنساوى والانكليزى » ..

ثم استمع الى رأيه فى عبد اللهنديم فى ۹ يونيو ۱۸۸۲ « أيها الولد الأبر ، كنت أظن أن الذمة والشرف توجبـــان على كل

انسان خصوصا على من تحلى بخدمة الحرية والمدنية أن يكون متصفا بشعار الحق والانصاف ، حافظا للجميل لا تلفته المقاصد الشخصية ولا الغايات الذاتية عن الحق ، فقد قيل : لعن الله قوما يضيع الحق بينهم ، ولكن لما كان لكل امرىء من دهره ما تعود ، وكان الطبع غالبا على التطبع مهما كان صاحبه ، كشفت يد الأيام ستر الخفا عما يكنه الضمير ، فاتضح الصبح لذى عينين ، وبان لى الآن خطأ ظنى ، وعلمت أن الحق هو عبارة عن ترويج المصالح .. وذلك لأنى تلوت بلسان الأسف وطالعت بعين الاستقامة ماحواه عدد ثلاثة وأربعين من جريدة الطايف الصادرة فى ٢٥ جماد الثانى ، واذا بك قد أتيت فيه ببعض جمل وعبارات خالفت فيها ما تستلزمه الذمة وخرجت عن جادة الحق والانصاف » ..

تلك كانت سجية يعقوب بن صنوع، لايتردد فى تعديل رأيه فى شخص ما اذا تراءى له انحراف فى الرسالة التى اتبعها وهو لايفرق بين كاتب أو وزير ، وقد رأينا هذه السجية مضطردة فى صحفه جميعا ، وانه لم يغير رأيه قط فى عدة أشياء ، ايمانه بوطنه وتحنانه اليه ، ثم مخاصمته للخديوين فيما خلا عباسا الثانى وهجومه المتصل على الانجليز وسياستهم فى مصر والسودان ، وقد بقى على هذه الآراء حتى قضى فى سنة ١٩١٢ ، فلا عجب اذن ان رأيناه فيما بعد مادحا الشريف ، فعلى قدر مايقدم الوزير لبلده يجد من المترجم له التأييد والتشجيع



السيد عبد الله نديم
وقد جاء ذكره فى أكثر من موضع

أبو نظارة زرقا

لسان حال الأمة المصرية الحرة

يمضى أبو نظارة فى طريقه يؤدى رسالته الوطنية والصحفية ، فيغير اسم صحيفته تغييرا آخر فيسميها (أبو نظارة زرقا ـ لسان حال الأمة المصرية الحرة) ويتم هذا التغيير بصدور العدد الثامن الصادر فى السنة السادسة بتاريخ ٢١ ابريل سنة ١٨٨٢

وقد أخذ ينشر مع المتن العربى فى كثير من الأعداد ترجمة فرنسية طغت أحيانا على صفحات الصحيفة ، ويعتذر الكاتب عن ذلك بقوله « وصغرت الخط لجعل محل للترجمة الفرنسى اللى طلبتها منى جميع محررين أوروبا لدرجها فى صحفهم الغراء ، فان شاء الله من الآن وصاعد النظارة تصدر عربى وفرنساوى » .

ومن الجديد الذى رأيناه فى (أبو نظارة زرقا) فى عامها السادس نشر أول نعى فى صحفه جميعا ، غير أنه نعى غريب طريف ، انه فى اطار مستطيل مجلل بالسواد ، ينعى فيه شاهين باشا أحد خصومه من كبار الرجال فى عهد اسماعيل وننشره كاملا لنتبين كيف تسيطر عواطف صنوع على آرائه فى الناس ، حتى أولئك الذين فصل الردى بينه وبينهم بحجاب ثقيل ، ولكنه لايراعى رهبة القضاء ولا جلال الموت ، قال « لما جانى خبر الكونت شاهين ، بأنه انتقل الى الرحمة الالهية طلبت له العفو من رب العالمين ، وزالت كراهته من قلبى ونسيت الأسية لأن الله يرحمه كان قال لاسماعيل مدة ماكان الجندى فى عز هو وناسه ، اذا تجاسر حليم ودخل وادى النيل وراس افندينا أجيب لك راسه ، وأدى سبب كراهة أبناء مصرنا فيه ،

«انما احنا قلبنا حليم قلنا عذاب نابولى سنتين يكفيــه ، يغفر خطاياه ويفتح له باب النعيم . يا أهل شاهين قتيل شيخ الحارة اتنيلوا والطموا على الخدين ، سبع بيتكم مات فى بلاد النصارة ، ولا كان جنبه شيخ تقى يقرأ له للمتين . آه عند طلوع روحك ياشاهين ، ماكان حداك الا اسماعيـــل الشيطان ، فما خلاك تستشهد كالمؤمنـــين ، ونتش من يدك ياكبدى القرآن .. »
وقد ترجم الكاتب هذا النعي الغريب الى اللغة الفرنسية ونشره فى اطار اسود .

ثم تعود الصحيفة فتواصل رسالة يعقوب الأصيلة ، وتشغل صفحاتها بمجريات الحوادث فى مصر ، فتحذر عرابى واخوانه من الخطر المحدق بالقضية الوطنية ، وتشرح لهم ذلك شرحا وافيا استغرق نحو ثلاث صفحات من المجـــلة وأخشى ماكانت تخشاه أن يقع الاحتلال الانجليزى للبلاد ، لخطأ من المسئولين مقصود أو غير مقصود .

وتتأزم الأمور وتضرب الاســكندرية وينطلق فيها الحريق فيأتى على مبانيها . وتترامى الأخبـــار الى أبى نظارة فينشر تفاصيلها ، ويبين لمواطنيه الموقف فى صفحة جلل جانب منها بالسواد ، ثم يدعوهم الى الجهاد ، ومن قوله « ياكبدى عليكى يا اسكندرية يابكا عينى على سراياتك الفاخرة ، صبحتك كوم رماد الجلل الانجليزية » ويبين كذب الانجليز بتحميل المصريين مغبة هذا الحريق « ما لها أصل ولا فصل أخبار التلغراف ، لأن جميعها صادرة من كلب البحر صيمور ، فلا أصدق أن عساكر مصرنا الأشراف ، ضد الانسانية تحصل منهم أمور ، الجهادى المصرى يموت ، فى حب وطنه العزيز ، فكيف يحرق وينهب البيوت .. وفى الواقع اللى حصل من القتل باسكندرية ، دا جاب علينا الحق لأنه عار ، ولو أن ابتداه من الجريح الدون والمالطية ، اللى وزوهم اسماعيل وتوفيق وماليت المكار » .
ثم يبين يعقوب لمواطنيه انهم أساءوا الى بلادهم اذ لم يستمعوا الى نصيحته ولم يوقعوا عريضة وينالوا فتوى العلمـاء بطرد توفيق ، ثم يقول « اللى فات مات ياجدعان .. حاموا بشرف عن بلادكم يافرسان ولعنة الله على من يسلم روحه للعدو أسير » ويتجه بكلامه الى الأمة الانجليزية يشكو اليها حكومتها « التى

كريمة يا أمة بريتانية . انما حكومتك بالمظالم مشهورة ، انتى بتدافعى فى محافلك عن حقوق الأهالى المصرية ، وحكومتك مرادها تخرب بلادنا المعمورة » ويمضى مادحا الفرنسيين ، متحدثا عن موقف أحرارهم فى البرلمان الفرنسى وعلى رأسهم كليمانصو ، حاملا على بعضهم لمؤازرتهم الانجليز فى فعلتهم وفى مقدمتهم جامبيتا ، ثم يشجع مواطنيه أخيرا « اليوم صبح اسمكم عظيم ، ومحبوب عند جميع محبين الحرية ، ماتخافوش ربنا كريم حليم ، ان كنتم جدعان الانكليز يطلعوا من الديار المصرية ٠٠ »

ويسخر يعقوب فى نفس العدد من توفيق سخرية لاذعة قاسية تجاوز بها الحد فى عرف أيامنا وأيامهم ، وان لم تخل من طريف تميزت به صحف أبى نظارة ، قال « وردت الينا رسالة من مكاتبنا بالقاهرة يقول فيها ان توفيق توفى لكون أهل مصر حذفوا حرف القاف من اسمه والحدق يفهم ٠ يقول أيضا ان شبابنا وجدوا فىاسم حليمأحرفيتركب منهاالفظ مليح فلذلك الأهالى بمصر بتسلم على بعضها بهذه الجملة « المليح جاى لنا عن قريب » مكاتبنا أسعد الله أوقاته أرسل لنا أيضا دور جديد بتغنيه الأهالى على هوا المارسليزة الفرنساوية ، وترجانا بدرجة فى هذا العدد فهاهو : ـ

أرقصى وغنى ياتوفيقه ، وسلى عشيقك لورد صمور ٠ اللى نجاكى من الحويقة ٠ وركبك على الوابور ٠ ارمى طربوشه ياصبية ٠ والبسى لك برنيطة عال ٠ عرابى ، طلبه ، عبدالعال هنوا توفيقه الانكليزية ٠ يا ابن البلد يافلاح ٠ زفوا توفيقه للنكاح ٠ هيا بنا ٠ نرى توفيقه خارجة من برنا » وهكذا يمضى مصورا الخديو توفيق فى هذا الاطار الذى لاتخرج عنه سيرة هذا الخديو فى أى كتاب علمى مدروس حين لايدلسعلىالتاريخ أو يكتب التاريخ خضوعا للظروف والملابسات كما كانيصنع بعض حملة القماقم من مؤرخى عصرنا سعيا وراء رتبة أو جاه !!

●●●

ثم يعترضنا فى دراسة هذه الصحيفة عدد واحد باسم

(أبو نظارة ــ مصر للمصريين) لم يكن له نصيب فى أى معنى جديد انطوت عليه أبو نظارة زرقا ، ولو أهمل في تاريخ صحفه لما خسر الكاتب شيئا ، فقد كان عددا خاصا بتذكير أهل الذكر في مصر بما سبق أن كتبه لهم من ستة شـــهور عما يلقونه اليوم من أحداث .

ثم يتلو هذا العدد ، عدد واحد باسم (أبو نظارة زرقا ــ لسان حال الأمة المصرية الحرة) ثم تختفى الفقرة الأخـــيرة المكتوبة تحت الاسم الأصيل ، وهذا العدد الختامى من تاريخ هذا الاسم يتضمن حديثا عن أبى نظارة وما سعى اليـــه فى انجلترا كى يحول بين عرابى والاعدام ، ومدى ماعرضه الانجليز من رشاوى رفض أن يقبلها ، وسعيهم لنقله الى لندن حتى تصدر صحيفته من هناك ، وكيف أبى أن ينصت اليهم ، أو يخون قضية بلاده التى وقف عليها حياته .

وحقا وقف قلمه على خدمة القضية الوطنية كما سنرى فى مستقبل صحفه الكثار ، ولم نر قط تهاونا فى كفاحه أو يأسا من استقلال وطنه وتمتعه بجميع الحريات .

●●●

أبو نظارة زرقا

صدر العدد الأول من (أبو نظارة زرقا) فى مطلع العام السابع من تاريخ مجلات ابن صنوع فى ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ مصدرا بافتتاحية دعا فيها صاحبها لبنى وطنه بالعز والتأييد حتى يصبح الفقير غنيا والأعمى مبصرا والعقيم منتجا ! كما حمل فيها على اسماعيل وتوفيق وابنه عباس ، وان كان فيما بعد سيشمل عباسا بالعطف والتشجيع ، وينهى المترجم له افتتاحيته بدعوة مواطنيه الى الاشتراك فى « النظارة الزرقاء الشهيرة » ويطلب اليهم أن يسرعوا « فى ارسال العشرين فرنك . قيمة اشتراك الجريدة فى السنة ، بحوالة بوسطة أو عن يد بنك .. »

وقد تميزت (أبو نظارة زرقا) بكثرة الرسوم فيها ، فنجد فى الصفحة الأولى والأخيرة رسمين يعبران عن معنى من معانى الساعة ، كما نجد كلمة (زرقا) بدون همزة ، الى جانب تفاصيل واضحة عن المجلة ، فنرى صاحبها واقفا بين رسمين يمثلان الحكمة والحرية وان تغير رأس المجلة بين آن وآن ولم يتغير اسمها على أى حال .

وكلما قلبنا فى صحف يعقوب وجدنا طابع الصحيفة وأهدافها أهم مافيها ، فهى سجل عظيم لاحداث مصر ، يحسن الانفوت الفرصة ، فننقل عنها بعض هذه الاحداث لنبين طريقة النظر الجديدة فى الصحافة المصرية ، هذا الى أن خط المجلة قد تحسن بشكل ملحوظ ، ونظم عرض الموضوع فيها فى نهرين ، كما أدخلت فيها أبواب جديدة كباب (السياسة) ولم يكن لها ترجمة فرنسية لمدة سنتين ، وان كانت الرسوم قد احتوت على تلك الترجمة ، ومن أبوابها الجديدة أيضا « تلغرافاتنا الخصوصية » التى زخرت بها السنة الثامنة ، وهى برقيات من تأليف المترجم له فيها المختار من الشتائم والسخرية ، وسوف نعرض لها فى سطور مقبلة .

وقد سار أبو نظارة على نهجه فحدثنا حديثا شيقا فى

المخاطبة الأولى بين « شهامتلو حسام أفندى ضابط عسكرى وقيافتلو عياقتلو نومة الضحى أفندى ٠٠ الخ » عن حريق الاسكندرية ومذبحتها خاصة ، فرمى فى الحوار الى أن الخديو توفيق هو صاحب الجريمة « ٠٠ على الواد الأهبل مستندات وشهادات وحجج وأوراق وتلغرافات تثبت لمن اطلع عليها أنه هو الآمر بمذبحة اسكندرية ، وجميع أهالى لنـــدن ألزموا الوزارة الانكليزية بتشكيل مجلس لتحقيق الدعوى ومحاكمته»

وهو يحمل الخديو وعصبته كل النتائج التى وصلت بمصر الى هذا الهوان ، ونشر فى ذلك قصيدة ممتعة نسبها لأحدهم نقتطف منها بعض أبياتها ، فهى الى دقة التصوير تجمع معانى أدبية لابأس بهـــا ، بعنوان « القـــول الوجيز فى دخـــول الانكليز » :

ياراوى الدهر حـــدث عن أبى العجب
واندب زمان التصـــافى يا أخا العرب
مابين جهـل وحقـــد ضاع سـؤددنا
واســـتأصلتنا يد الأرزاء والـــكرب
هـــذا العزيز تخـــلى عن سيـــادته
للانـــكليز ولم يقبض ســـوى الكذب

●●●

كـانت شرارة نـار لـم تـــكن أبـدا
محتـــاجة فى تلافيهـــا الى نصـــب
لـــكن حشـــوا رأســـه غشا فأضرمهـــا
حـــتى تجـــاوزت البـــلوى الى اللبيب
وبعـــــد ربكتـــه جاءوا لنـــصرته
لـــكنهم جرعـــوه لوعـــة الحرب
جنوا عليـــه جنـــو الذئب اذ نظرت
عينـــاه شـــياة تجر الرجـــل من عطب
فخـــال أن ثنـــايا الذئب باســـمة
ومادرى أنهـــا أنيـــاب مختـــلب

●●●

مصر الفتـــات أبو سلطان أســـلمها
وانما أســـلم الاســـلام بالـــذهب

هم رأســوء على النواب يرشــدهم
فـكان نائبــة من أكـبر الــوب
وقــد أثارت لهيـب النــار ندوته
فصــار أولى بأن يدعى أبا لهـب
نبت يداه عــلى ما جاء من عمــل
لـم يأته خـائن فى ســالف الحقب

●●●

فكم أصــابوا برينــا طوع غايتهــم
وأغمضــوا أطرفهــم عن كل مرتـكب
وكم أهاجــوا بزور القــول من فتن
وروجوا الــكفر فى جــد وفى لعب

وهكذا مضت القصيدة الممتعة تحكى المصائب والخيانات التى حدثت ، فى صفحتين من أبى نظارة زرقا . وتؤرخ للاحتــلال وأنصاره تاريخا صادقا لا غبار عليه .

ولا يتهاون يعقوب بن صنوع فى الحملة على الخديو اسماعيل وولده توفيق ، فقد كان ذلك من أهداف سياسته العامة ، الى جانب تلك الكراهية العميقة للاحتلال وأصحابه ، وهو فى هذه الكراهية ينفس عن نفسه كمواطن مصرى شريف ، ويعبر أيضا عن السياسة الفرنسية التى كرهت هذا الاحتلال ووقفت له بالمرصاد فى كثير من المناسبات حتى تم الاتفاق الودى بعــد ذلك بسنوات . ومن العناوين الطيبة لحملته على اسماعيل وتوفيق مانشره فى معرض المقارنة بينهمــا وبين الأمير حليم وفى هذه المقارنة عرض الكاتب لسيرة اسماعيل فى ايطاليــا وماتعرض له من سوء المصير نتيجة اضطرابه فى شئون السياسة وأموره الخاصة التى لاتليق بأمير كبير ..

ثم لاينى المواطن الحر عن الدفاع عن القضية المصرية بجميع الوسائل والطرق ، فيسعى خطيبا يعرضها فى مدن فرنســا وعواصم أوروبا ، ويسجل آراءه فى صحيفته ، وهو ينشر أيضا نحو صفحتين كاملتين عما صنعته « صاحبة الســعادة الخاتون كارتر المحترمة » فى هذه القضية وكيف « عقدت محفلا سياسيا دعت اليه جمعا غفيرا من السيدات السياسيات مــع

بعولهن وأولادهم وبناتهن . وكلفت بعض الرجال السياسيين القاء الخطب في سياسة الدولة البريطانية بمصر ـ فتولى رياسة المحفل مستر وود ـ صاحب جريدة (المورننج بوست) وصار صاحب النحلة معـــاونا أول له ٠٠ » وكان هـــذا الاجتماع ناجحا وموفقا ، وتعرض فيه المتكلمون لبربرية حكومتهم التى قضت على استقلال أمة متحفزة وسمحت للفساد أن يستشرى فيها دون وازع من ضمير وخــلافا لما أثر عن تقاليـــد الأمة الانجليزية ، الأمر الذى يراه أحرار انجلترا مسبة فى تاريخهم ويستوجب منهم السعى عند المسئولين للرجوع عن هذه الطريق واخلاء مصر من الجنود الانجليز ٠

ويعقوب لايقف مجلته من الآن فصاعدا على القضية المصرية وحدها ، بل يعرض لقضايا الشعوب المستعمرة فى كل مكان، وخاصة الشعوب التي تخضع لحكم الانجليز ، وهــو يعرض قضاياها ليعتبر مواطنوه ويروا فيهـا كيف يجالد ويـكافح الأحرار فى كل مكان ، وقد صدر افتتاحية أحـــد الأعداد بموضوع عن الهند قدم له بأنه « وردت الينا من أحد نبهـاء الهند الرسالة الآتى درجها ، فالمرجو من محبي الوطن والحرية بمصر أن يقرأوها بغاية التأمل ويفهموها كلمة كلمة ، فتظهر لهم خباثة الحكومة الانكليزية وسوء معاملتها مع من يقع تحت يدها . والعذاب الأليم الذى تذوقه للأمم التى تتسلط عليها هذه الحكومة المشومة »

فهو فى جانب من صحفه يروى لمواطنيـه ظلم الانجـــليز ويبصرهم بسياستهم فى داخل البلاد التي يحتلونها ، ثم يبين لهم فى جانب آخر العبث الذى يعبثه أعداؤهم بالقضية المصرية فى الميدان الدولى ، وكيف يحاولون اخراجها من هذا الميـدان لينفردوا بأمور البلاد ، حتى انهم دعوا الى مؤتمر يعقد فى لندن ســـنة ١٨٨٤ ولــكنه كما يقول صـحفينا « طلع طز فش » وقد أثبتت الأيام صدق ماذهب اليه ، فلم تلق قضية مصر عناية صادقة من الدول الأوروبية ، التى سلمت واحدة بعد أخرى للانجليز بما يريدون ٠

وهو دائب الكتابة في مجلته ليجاهد مواطنوه ذل الاستعمار، ويكافحوا أعداءهم الانجليز ، وله فى ذلك أكثر من مقال وصورة

ومن أمتعها مقاله بعنوان (الأحوال المصرية) وهي قطعة أدبية لابأس بها ، وقد جاء فيها « ٠٠ والنواح على الشبان الاحرار الذين ما أنبتتهم رياض مصر غصونا الا وقد قطعت عليهم سبل الترقي ومنعوا ماء الهناء وهواء التقدم فلا نمولهم الا بالذل ولايميلون الا ميلة المسكين بعد دلال الشرف في منارة الأوطان ، والأسف كل الأسف على الشيخ الكبير والطفل الصغير ، فذلك لايوقر وهذا لايرحم ٠٠ والحسرة على الرجال الذين أفنوا أيامهم فى خدمة الحكومة وقصروا أوقاتهم على صالحها وهم اليوم تفيض أعينهم من الحزن اذ لايجدون ماينفقون ٠٠ أفيقوا أفيقوا ياعشاق النوم ان معشوقكم هذا عدو لكم ٠٠»

ولما لم يعجبه خنوع مواطنيه كتب يقول « لاأدرى هل أنتم صخور صم أو ختم الله على قلوبكم وعلى سمعكم وعلى أبصاركم فأنتم لاتشعرون ؟ هل أنتم مياه راكدة أو أنتم جبال راسخة أو أنتم من دباب سيبريه فى أيام الشتاء ؟ هل متم ؟ فان كنتم متم فلا أقل من أن تنتشر روائحكم الكريهة ٠ ماهذه الحالة ؟ الانكليزى قد ابتلع بلادكم وأفقر أغنياءكم وأذل أعزاكم ودمر بيوتكم وسلب قوتكم وأهلك عساكركم وفرق شملكم ٠٠ وكل العالم فى جلبة وضوضاء واستخبار واستفهام عن أخباركم وقلوب الأجانب فى قساوتها قد تفتتت حزنا عليكم ٠٠ ومع كل ذلك أراكم كاشري الأنياب غائرى العيون متقلصي الشفاه كأنكم فى حانة ٠٠ يا أهل مصر ! ماهذا السكوت ٠ ماهذا الجمود ٠٠ والله والله والله ٠ هذا وقت لو تقاعدتم فيه عن طلب حقكم لجحدكم كل انسان حتى البرابرة والتكارنة والسومالية والسودانيون ولهم الحق بذلك » ٠

وهكذا يبكت الكاتب مواطنيه وكان تبكيته يصل أحيانا الى الشـتائم فيتحسر قائلا « مافاضـلشى فى مصرنا الا الجديان ٠٠ »

ولم يعجبه فى رجـالات مصر فى ذلك الوقت ، أى فى سنة ١٨٨٤ الا شريف باشا ، ذلك الوزير الذى أبى أن يفرط فى السودان ، وله موقف مشهور خلد فى التاريخ ، ويعقوب هنا منصف للناس والتاريخ ، فقد كان خصما لشريف باشا فى أكثر من مرة ، ولكنه مدحه أيضا أكثر من مرة ، وذلك كلما

وقف الوزير موقفا مشرفا ، وكانت آخر المواقف المشرفةماذكره عنه فى أزمة سنة ١٨٨٤ على لسان شريف نفسه وهو يخاطب الخديو بقوله « .. سعادتك سيد العارفين وتعلم أن رجل اختيار مثلى اللى قضيت طول عمرى شريف مايصحش انى أضيع شرفى على آخر الزمن .. » ثم يرسم صورة ممتعة لمكانة رئيس الحكومة فى ذلك الوقت بقوله على لسان شريف باشـــا « أنا اليـــوم يا أفندم صبح رئيس نظار دولتك العلية أشبه بطرطور لأن لسوء حظ مصرنا الربط والحل فى يد الجماعة » .

ان صحفينا لاينكر فضلا لأحد ، ويسجل هذا فى اخلاص، مهما تكن بينه وبين صاحب الفضل من خصومات ، وقد دأب على نشر المديح فى كل من يرعى ذمة وطنه ولو لم يكن مصريا ، وحسبنا على ذلك دليلا ثناؤه الجم على لويس صابونجى صاحب النحلة « وهى أشهر من أن تذكر ، وكل مصرى حر بها أخبر» ويعلن ابن صنوع فضل صابونجى على زعماء الثورة العرابيـة « ولولا منشيها ــ يقصد المجلة ــ الذى أخلص الجد وثبت على الكد فى الاستنصار للسيد أحمد عرابى واخوانه وسعى لدى زعماء الحرية ونصراء الانسانية للتألب على أهل الفساد لـكان عرابى اليوم قد باد » ويمضى متحدثا عن أنه كان ــ أى لويس ــ واسطة خير بين « مستر بلونت الشهم الهمام وبين السـيد أحمد عرابى .. »



المستر بلنت فى تاريخ العرابيين تاريخ ..

وقد نشر هذا تحت رسـم لصاحب النحلة وهومن الرسوم القليلة النادرة للأشخاص التى وجـدت فى صـحفه الأولى مرسومة وسط اطار جميـل ، وكذلك نشر صورةللمستربلنت وتحدث عنه مترجما لحياته نقلا عن«جريدةالنحلة الصابونجية » فذكر أن خصوم الحرية لمصرادعوا أنه عين للانجليز ، وأنه لم يصدق شيئا من هذا بعد اطلاعه عـلى مؤلفـــات بلنت عـن الشرق

وفضائله » فأن السيد ويلفريد سكاون بلونت حبيب الأمم الشرقية ، أما قرينته اللادى عنا : فهى جميلة كحور الجنة ، ليس فقط بالحسن والجمال ولكن بالفضائل والكمال ، لسانها بالعربى فصيح ، ولفظها بلغتنا مليح ، حفظت القرآن الشريف، ودرست كل شاعر عربى لطيف .. »

وقد نشر صورتها فى عدد تال مادحاً اياها فاكراً شمائلها فى تفصيل ، وان ماذكره يعقوب بن صنوع من ثناء على المستر بلنت ، وما أضفاه عليه من تكريم لجدير به حقا عند من يعرف تاريخ الثورة العرابية ، وعند من قرأ عنه فى صحف مصر أو فى صحف أبى نظارة فى باريس ، فقد ذاد الرجل عن العرابيين وقضيتهم ، ونشر ذلك فى التيمس جريدتهم الكبرى .

ويبدأ فى (أبو نظارة زرقاء) تاريخ الحركة المهدية بمانشرته عنها المجلة من حوادث وبيانات ورسوم ساخرة بالانجليز وبكانتهم كجنود حرب ، ومن أمتع مانشر فى هذا البـاب تلك الأزجال التى تعرضت لرجال الانجليز من ضباط الجيش أو من موظفى الحكومة المصرية المدنيين ، فقرأنا زجـلا عن (دور الجنرال جردون) قال فيه الكاتب .

يامحـــلا لنجـــليزية
ام عين زرقا وشـــعر أصـفر
ياخســارة دالصـــبيه
فى جوزها العســكرى الأحمر
شفتها امبارح ياأسيادى
ماكانش حولهـــا انجـــليز
فقلت لهـا ياميليـــدى
جيف مى أكيس ايفيو بليز (١)

●●●

أنا فى عرضك وان كيس(٢)
قالت جـوديم بلادى فول (٣)

١ـ يعنى اعطنى قبـلة من فضـلك ياسيدتى ..
٢ ـ معناها قبلة واحدة ..
٣ ـ معناها لعنة الله عليك يامجنون ..

بلا فول بلا شعير
ماتتبغبدديش على
أنا ابن المهدى الكبير
احلمى على شويه

●●●

فشفنا المهدى منصور
والجردون فى الشق مكتوم
تانى يوم جابوه أسير
فى مصيده سودانية
أمام المهدى الشهير
مع ضباطه لنجليزية

●●●

فاذا فرغ يعقوب بن صنوع من حملته على جوردن عقب عليها (بدور على كليفورد لويد) وهو وكيل الداخلية الانجليزى وله تاريخ مشهور عرضنا له فى مؤلفنا عن جريدة الاهرام بما يكفى لشرح سيرته فى أخذه لأمور مصر الداخلية وقد جاء فى هذا الزجل ٠

لو لم يكن باش دجال
ماكان غلادسطون اختاره
قال جا مصر يصلح لاحوال
خربها يخرب دياره
ياما نهب فلاحين
ياما غدر جهادية
ياما ظلم مساكين
ونفى شبان مصرية
أما ربى فعله عجب
كشف ستره فبان غشه
وفى شهر شعبان ورجب
أمام الناس سود وشه

ولم تقف السخرية عند حد ، سواء اتصلت هذه السخرية

بنظام الحكم والادارة فى مصر أو في السودان ، ومن ذلك مانشره تحت عنوان (تلغرافاتنا الخصوصية) وهى برقيات من صناعته وتشبه الأمثلة التى كان ينشرها منذ سنتين تحت عنــوان (كلام فارغ وكلام مليــان) ومن هذه التــلغرافات ماجاء « من القاهرة فى ٧ منه » وفيــــه يقول « سلطان باشا متوجــه الى لندن بمأموريتين احداهما ينظر طريقة لاعفاء المسلمين من لبس البرانيط كأمرهم الذى جرى مفعوله فى ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ ، - ثانيهما يتعهد للانجليز بتسليم بر مصر كلها ، ومرضـــــاة الأهالى على الله ثم عليه بمبلغ أكثر شوية من الذى كان أخـــذه عندما سلمهم التل الكبير وكان ذلك عشرة آلاف جنيه ٠٠ »

وتستمر (أبو نظارة زرقا) تؤكد سياستها فى نقد أمور الداخل وكشف أستار السياسة الدولية تجاه مصر ، وتشرح مقام المهدى فى نفوس مواطنيه المصريين وتحمل على الانجليز والنحس الذى حل بمصر بحلولهم ، وتأتى فى ذلك بمثــال الكوليرا التى انتشرت فى البلاد انتشار النــار فى الهشـــــيم ثم لايفوت المحرر بين آن وآخر الحملة على اسماعيل فى منفاه ، ومن هذا القبيل ماذكره عنه وعن المجلة التى يصـــــدرها فى ايطاليــــا بقلم ابراهيم بك المويلحي فقال فى خطاب مفتـــوح « ٠٠ طى جوابى هذا يابو توفيق تجد مقالات أحد من الخوازيق قطفتها من أعظم جرانيل باريس ولندن وروما وفينا وبرلين ، أقراهم ياكبدى وابكى على روحـــك يامســكين ، دول ذموك وهلهلوك وكشفوا سترك وحقيقة أحوالك ، وأخبروا جميـــع الناس بأن جرنال الاتحاد هو جرنالك ٠٠ » الى آخر ماجاء من تسفيه الخديو وما احتوت عليه صحيفة الاتحاد التى كان يصدرها فى الخارج من دعاية فجة تافهة ٠

وهكذا يختتم يعقوب بن صنوع بانقضاء سنة ١٨٨٤ حقبة من ســــيرة صحفه ، مليئة بالاحداث والعبر ، ويســــتقبل بعد ذلك بعض الحقب التى بلغت فيها صحفه غايتها من النضج والاستواء ، وسجلت أحداث مصر كبيرها وصغيرها ، وقربت الى الافهام كثيرا من المشاكل والمسائل التى كان يســــتعصى فهمها ، ويدق هضمها على عامة الناس ، وخاصتهم فى بعــض الأحيــان !

الوطنى المصرى

وهذه صحيفة أخرى ، من الصحف التى اضطرته الحكومة المصرية الى اصدارها فقد أصـــدرها حين قرر مجلس النظار مصادرة صحيفته (أبو نظارةزرقا) حتىيتمكنبذلك مناسماع صوته في مصر عن طريق توزيع (الوطنى المصرى) على قرائه العديدين الذين كانوا يتشوقونالى مجلته ، وينتظرون أعدادها وجلين من مصادرتها فى الجمارك المصرية ٠

والوطنى المصرى صحيفة تشبهفيحجمها (أبو نظارةزرقا) ، ولولا تغير الاسم لظنناها هى بنفسها ، فهى لاتختلف عنهـــا شكلا أو موضوعا ، بيد أنها تميزت عن صحفه الأخرى باللغة الانجليزية التى احتلت منها جزءا واسع النطاق ، وهى ترجمة طيبة لبعض مقالاته المنشورة فى الصحيفة باللغة العربية ٠

وقد نشر المحرر اسم الصحيفة باللغة العربية محاطا بترجمة حرفية لهذا الاسم باللغة الانجليزية هذا الى أن جميع التفاصيل الخاصة بالمجلة كاسم صاحبها وناشرها وقيمة الاشتراك فىمصر وغير مصر من بلاد العالم وتاريخ الصدور ومالى ذلك قد نشر باللغة الانجليزية على رأس العددين النادرين اللذين صدرا منها فى باريس ٠

وقد ذكر المحرر انه سيصدر منهااثنى عشر عددا ،والصحيح أنه لم يصدر الا عددين فقط حـتى رتب أموره مع معاونيـــه فى القاهرة ، فأعاد اصدار (أبو نظارة زرقا) فى الشهرالتالى لصدور الوطنى المصرى ، ونقصد بالأمور التى رتبها مـــع معاونيه هى التغلب على عقبات ادخال (أبو نظارة زرقا) الى مصر دون أن تحجز فى جماركها وذلك بطرقه المختلفة التى شرحنا طرفا منها فى فصل سابق ٠

وقد صدر العدد الأول من (الوطنى المصرى) فى٢٩سبتمبر سنة ١٨٨٣ أى بعد مضى سنة على الاحتلال الانجليزى لمصر ، وقد كان أبو نظارة يحسن لو استمر فى اصـدار صحيفتـــه ومعها ترجمة انجليزية ، أو اصدار صحفه الأخرى ومعهاتلك

الترجمة حتى يمكن للانجليز فى انجلترا أو فى مصر أن يقرءوا هذا الصوت البعيد ، ويتبينوا منه وجهة نظر الأحرار ، ويحسوا ـ وخاصة الانجليز المحليين ـ خطر صحيفته اذا قرأها المسئولون فى دوننج ستريت ، ولكنه يبدو أن ثقته فى الفرنسيين وايمانه بأنهم سيقفون الى جانب المصريين جعل المحرر يعنى عناية خاصة بنشر ترجمة لمقالاته باللغة الفرنسية دون الانجليزية ، وحتى العددين اللذين صدرا من الوطنى المصرى لم يخل أحدهما من ترجمة فرنسية ، وان اقتصرت الترجمة على الصور والرسوم ٠

وقد صدرت (الوطنى المصرى) فى ست صفحات ، على غير المأثور عن صحفه التى كانت تصدر الى ذلك الوقت فى أربع صفحات فقط ، ولوحظ على هذين العددين النادرين أن المعارك التى كانت دائرة فى السودان حينئذ كان لها المكان المرموق فيهما ، الى جانب بعض الرسائل التى وردت للمحرر من « الجمعية الوطنية السرية بالقاهرة الى أبى نظارة بباريس » ٠

وفى هذه الرسائل يبدو أن وجهة نظرنا القائلة بأنه كان من صالح البلاد نشر ترجمة انجليزية فى صحفه لما كان ينشره باللغة العربية من موضوعات ، قد أحسها مواطنونا فى ذلك الوقت ، اذ جاء من الجمعية الوطنية بعد شرح ماأصاب مصر من سوء « ٠٠ انما مصائبنا دى المهولة ، عند أهالى أوروبا بالكلية مجهولة ، فيجب عليك نشر جريدة سياسية تترجم أهم مافيها الى اللغة الانكليزية ، والقصد فى الترجمة هو عرض حال وطننا العزيز ، على الأمة البريطانية لأن لليوم موجود بين الانكليز ، كثير من محبى الانسانية والانصاف كما كنا نعهده فيهم من قديم الزمان ، فاذا سمعوا صراخ مصر ووقفوا على سوء حال السكان ، بادروا الى اصلاح مافسده فريق منهم اما جهلا واما تعمدا ونحن نبلغ القصد والمراد ، وتعود لنا الحكومة الوطنية اللى حرمنا منها الواد » ٠

ويكتب أبو نظارة حاشية على ماجاءه من الجمعية الوطنية السرية ، يقول فيها « أنا مستعد لخدمة الجمعية الوطنية المصرية ونشر جرنالها ودرج جميع مراسلاتها فيه ، فقط أرجو بأن كاتبى المقالات لايمدحونى ٠ مثل مافعلوا فى الجواب المحرر

أعلاه لأني لست أهلا لذلك ، وكلما فعلته وسأفعله لاصلاح وطني فهو فرض على كل مصرى ٠٠»

وفي رأيي أن أحدا لم يكتب له في هذا الموضوع ، وانماهو تخيل أنه قد تلقى هذه الرسالة وغيرها من الرسائل ليعبر بها عما يعتلج في نفسه ويدور في رأسه من أفكار وآراء ، وهي طبيعة الممثل فيه ، وله في ذلك أكثر من مثـال لاحظناه في صحفه الكثار ، وقد كانت فكرة ترجمة ماكتبه باللغة العربية الى اللغة الانجليزية فكرته هو ، وليست فكرة جاءته عبرالبحار كما يقول ، وهي فكرة صائبة آمن بها مصطفى كامل وغيره فيما بعد فنشروا صحفا باللغة الانجليزية ليتبين الانجليز قضايانا المعروضة بصدق وأمانة ٠

وهكذا صدر العددان النادران فقطعا على (أبو نظارة زرقا) سيرتها قليلا ، اذ جاء العـدد الأول من الوطنى المصرى بعـد صدور العدد الثاني عشر منها ثم جاء العدد الثانى بعد ظهور العدد الثالث عشر ، وهما على أى حال لايعنيان أن يعقوب بن صنوع اعتمد عليهما فى ابلاغ رسالته سـواء للمصريين أو للانجليز ، بل هما فى اعتقادى من صحف « الضرورة » التى نشرها المترجم له حتى يتغلب على الصعاب التى اعترضت سبيل صحيفته الأصيلة ، فقد كان الاحتلال الانجليزى قاسيا على الصحف في سنواته الأولى ، فصادر الصحف المحلية الوطنية وألغاها ، كما أصدر مجلس النظار في سنتى ١٨٨٣، ١٨٨٤ أكثر من قرار يحرم دخول جرائد بالذات الى مصر ، وفي مقدمتها صحف يعقوب والعروة الوثقى التى كان يحررها الأفغاني ومحمد عبده فى سنة ١٨٨٤ ويصدرانهـا فى باريس ٠٠

فاذا أصدر المترجم له مجلته (الوطنى المصرى) الى جانب (أبو نظارة زرقا) فانما يصدرها من باب الحيطة وعلاج النقص اذا حدث ذلك حتى اذا صودرت صحيفته الكبرى ظهرت مكانها مجلته الأخرى وحلت عند قرائه محل صحيفته الأصلية ، وتمكن بذلك من أداء رسالته على طريقته الفريدة التى اتبعها ثلاثين عاما دون توقف أو استرخاء ٠٠

أبو نظـــارة
مصر للمصريين

هى فى ذمة المؤرخ أعظم مدارج النضج والاستواء فى مجلات يعقوب بن صنوع ، من حيث الشكل الذى صدرت فيه صحفه، اذ هى أكبر طولا وعرضا ، وأجمل صورة ورسما ، وأدق املاء وخطا ، ومن حيث الموضوع وتنوعه ، والأسلوب وصحته ، والفكرة وحرارتها .. فمنذ سنة ١٨٨٥ سنشاهد دارا للنشر أو شيئا يشبه دار النشر ، مصدره انتظام حياة الكاتب المادية واستقراره فى عاصمة النور ، وشهرته بين الفرنسيين كمواطن لاجئ حر شريف ..

صدر العدد الأول من (أبو نظارة ـ مصر للمصريين) فى ١٠ يناير سنة ١٨٨٥ وكان آخر عدد صدر منها فى سنة ١٩١٠ أى أن يعقوب بن صنوع مضى يصدر مجلته نحو ست وعشرين سنة ، تقلبت فيها المجلة فبلغت فترة أوج العز والكمال ، وانخفضت فترات فأصابها الهوان فى شكلها وموضوعها ، وهى في جل أعدادها خصصت جزءا منها لنشر الموضاعات باللغة الفرنسية ، فكانت الصفحتان الأولى والرابعة وقفا على تلك اللغة ، وكانت اللغة الفرنسية تطغى أحيانا على اللغة العربية فتملأ أكثر المجلة وذلك « لتفهيم الأوروباويين ما صارت فيه مصرنا الآن من النشاط والتيقظ وعدم قبولها الغفلة ، كذا اجتهاد أهلها فى حزم الرأى وحسن المسلك واتحاد الكلمة .. » ومن الأمثلة على ذلك أيضا أن المجلة فى احدى السنوات كانت تنشر ثلاثة أرباعها باللغة الفرنسية .

وقد تغير رأس المجلة عدة سنوات ، فظهرت فى سنة ١٨٨٥ بالعنوان الذى ذكرناه ، ثم تغير رأسها فى سنة ١٨٨٦ فأصبح (أبو نظارة ـ ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا .. ويأتيك بالأخبار من لم تزود) ثم عاد رأسها الى ماكان عليه من قبل فى سنة ١٨٨٧ ، ثم تغير تغيرا خفيفا فى سنة ١٨٩١ ، ثم تغير تغيرا ملحوظا فى سنة ١٨٩٣ ، ثم أصابها التغيير أيضا

فى سنتى ١٩٠٤ و ١٩٠٧ ، وهذا التغير الذى شمل رءوس صحيفته لم يغير من شكلها أو طابعها أو حجمها ، بل مضت على سجيتها حتى ليفوت القارىء العادى أن يلاحظ هــذا الذى سجلناه هنا من ألوان التغيير المذكور .

والجديد الخطير فى شكل المجلة وروعتها ، هذه الصور الممتعة الملونة عدة ألوان ، وهى تنافس مانراه اليوم من الصور الملونة ولا تقل عنها دقة واخراجا ، ولم يستطع المترجم له أن يستمر فى نشر تلك الصور البديعة فى جميع السنوات ، فاختفت فترة طويلة من صحيفته ، ولم تعد اليها الا بعد سبع سنوات على أن هــذا لاينفى وجود صــوره ورســومه الأخرى ذات اللون الواحد ، فى الصفحة الأولى أو الصفحة الرابعة ، وان كان بعض الرسوم قد نشر فى قلب المجلة فى القليل النــادر وقد صدرت الصحيفة فى ورق الصحف الجيد وان كانت بعض الأعداد قد طبعت على ورق أبيض جميل .

وقد قام يعقوب بن صنوع بكتابة صحيفته أحيانا وطبعها على الحجر ، وكان خطه من أقبح الخطوط التى مرت بتاريخ مجلاته . نظرا لضــعف بصره الذى حال بينــه وبين تجويد الخط أو كتابة الـكلمات دون خطأ أو اضـطراب حتى أننــا نكاد نجزم بأن قبح الأعداد مصدره خطه الردىء ، وقد يستمر صدور الاعداد سنة كاملة على هذه الحالة ، ثم يتحسن بعــض الشىء فى سنة أخرى ويبلغ أقصى الجمال فى معظم الســنوات وقد رأينا مجلته فترة ما مطبوعــة بحروف المطبعة ، فجاءت آية من آيات النشر والاخراج ، الا أنه عاد الى خط اليد بعــد نقل المطبعة من مكان الى آخر واعتذر عن ذلك ، ووعد بنشر الصحيفة بحروف مطبعية غير أنه لم يف بوعده .

ولم يكن صدور المجلة منتظما ، فقد كان العدد يصدر مرة كل شهر ، وأحيانا يصدر مرة كل شــهر ونصف شــهر ، واستمر يصدرها مرة كل شهر منذ ١٨٨٥ الى سنة ١٨٩٠ ، ثم كتب يعقوب يقول فى ورقة خاصة ملحقة بالعدد الصــادر فى ٢١ يناير سنة ١٨٩١ « قد ازداد رغائب مطالعى جرنالى لنمو أهميته ، واتسعت دائرة الاشتراك فيه ولم تختص بمصر وســورية وتونس والجزائر والمغرب بل الهند والزنجبــار

وجزائر القمور وغيرها من البلاد الشرقية ، والذى يؤكد لنا ذات أهمية الجرنال ونفوذه وانتشاره فى وادى النيل مع شدة الحرس والمراقبين لمنعه ٠٠ وبناء على طلب القراء جعلنا صدوره مرتين فى الشهر عوضا عن مرة واحدة ٠٠ » غير أن هذا الوعد المسجل لم ينفذ ، بل ان مجلته مضت تصدر فى بعض السنوات أربع مرات فقط ، وان كان يصدر بجانبهـا وفى نفس الحجم مجلات مختلفة لم يحن الوقت بعد للتحدث عنها ٠

وقد ذكرنا أن يعقوب بن صنوع جعل مكانا ملحوظا لترجمة فرنسية لما يكتبه باللغة العربية ، وكان ينشر موضوعات كاملة بتلك اللغة لاعلاقة لها بالمنشور باللغة العربية ، غير أن هناك لغات أجنبية أخرى نافست اللغة الفرنسية فى كثير من الاعداد وخاصة اللغة التركية التى كانت تبرز بين آن وآخر بمناسبة « المولد السلطانى الحميدى » ، ثم احتفظت مجـلاته جميعـا فى أكثر السنوات بالتاريخ الهجرى يتصدر رأس أعدادها كما كانت الصفحة الأخيرة مكانا للتـاريخ الفرنجى المعـادل للتاريخ العربى ، غير أنه كان يغفل أحيانا كثيرة ذكر التاريخ الميلادى ٠

بقى سؤالان قد يشغلان بال قارىء هذا الكتاب ، أولهما عن مقدار النسخ التى كان يطبعها من كل عـدد ، وثانيهما عن الأسباب التى عطلت المجلة عن الصـدور أكثر من مرة فى الشهر ؟

ويجيب أبو نظارة بمناسبة بلوغ صحفه العيد الفضى عن السؤال الأول بقوله « ٠٠ طبع كل مرة من كل عدد من الأعداد العادية مايزيد عن عشرة آلاف نسخة أما الاعداد ذوات الأهمية مثل التى تضمنت عيد الجلوس والمولد السلطانى فقد طبع كل عدد منها ماينوف عن الخمسة وعشرين ألف نسخة ، وبحمده تعالى فلقد طافت مشارق الأرض ومغاربها ، وسلت الحزين على همه وملأت قلب المظلوم أملا بزوال ناف العبودية من على أكتافه ٠٠ » ثم نجد الاجابة على السؤال الثانى فى قوله أنه تقدم فى السن وضـعف بصره وكثرت أشـغاله « بالتعليم والترجمة » فضلا عن اشتغاله بالقاء الخطب فى المحافل والمآدب السياسية والعلمية ، كل ذلك لم يمكنه من اصدار مجلته فى

بعض الأحيان أكثر من مرة فى الشهر .

ويعتبر يعقوب بن صنوع صاحب الجريدة وكاتبها وناشرها، وان قام بكتابة خطها كثيرون من الشرقيين ، ووضع رسومها أكثر من رسام ، غير أن موضوعاتها جميعا من قلمه ، سواء كانت باللغة العربية أو بأية لغة أجنبية ، فقد كان الرجل يجيد كتابة أكثر من عشر لغات ، غير أننا لاحظنا بين آن وآخر كتابات بقلم آخرين أفصحوا عن أسمائهم افصاحا ملحوظا ، وداوموا على نشر المقالات عددا بعد عدد ، حتى ليخيل الينا أنهم من محررى المجلة الأصليين ، وفى مقدمة هؤلاء القس لويس صابونجى صاحب مجلة النحلة التى تصدر فى لندن .

●●●

أما سياسة المترجم له فى صحفه جميعا ، فهى هى سياسته التى عرفناها له من قبل حتى سنة ١٨٨٤ ، ولايزال اسماعيل وتوفيق ، وخاصة الأخير موضع سخطه وسخريته ، ومن ذلك مانشره تحت عنوان (دور) ولا تنصب السخرية على توفيق وحده بل تشمل المصريين الذين يرضون الذل ولا يرفضونه ، استمع اليه يقول :

مستر توفيق ابن اسماعيل	ماله رفيق فى وادى النيل
النـاس سابوه لـكونه خان	مصر وأبوه حتى السلطان
باع للأجنبى كل الأصحاب	أهبـل وغبى غشاش كذاب

●●●

فى مصر رجال يخلصوهم من الأندال اللى باعوهم

غير أنه يستعرض تهاون مواطنيه فى ظروف سابقة ، ويتذكر مواقفهم الضعيفة فى الشدائد والمحن ، فيعلق على ضعفهم وخورهم فى عنف بقوله فى فقرة من فقرات هذا الدور :

لا . دول بالهم توفيق بيسوقهم
ده وحل مش دم اللى فى عروقهم

●●●

وتأخذ القضية السودانية وأبطالها مكان الصدارة فى صحيفة

ابن صنوع سنوات متصله ، فنجد تحية رائعة من قلم صاحب النحـــلة عن (عثمان دقمة بطل الســـودان) اســـتغرقت الصفحة الأولى ، وفيها يدافع صابونجى عن الثائر ويحمل على الانجليز « اذا ذب المرء عن دينه وعرضه ووطنه كان أشـــد الناس ورعا وشرفا ومروءة فالبطل الهمام عثمان دقمة الذى أضحى على الانكليز أشد نقمة ، قد تفرد بين قواد السودانيين بالبسالة والغيرة على حرية وطنه وقومه ، فلا لوم عليه اذاقاوم الانكليز والاجانب الذين حاولوا غزو بلاد نشأ فيها ، ولذلك لاندرى بأى حق يصفه الانكليز بصفة عاص » ثم يمضى مادحا له ساخرا من الانكليز وجيشهم المدبر فى السودان ٠

ويظهر أبو نظارة شماتته بهزيمة الجنود الانجليز فى السودان تحت عنوان (برج ايفيل) وهو حديث عن هذا البرج ومهندسه فيزعم أنه كتب مقالا من أعلى البرج ذكر فيه أنه يرى وادى النيل « من السودان الى اسكندرية ٠٠ ويرى اسود السودان قد أخذوا الانكليز على أسنة رماحهم كأنهم كباب من لحم خنزير قد سيخ فى سيخ مسقى ببول الحمير ، وهم على صورة الجراد ، ووجـه الشـبه أن الجراد لم ينزل بواد الاخربة ٠٠ » وهـكذا ينتقل الى مدح شجاعة مواطنينا السودانيين ، مؤيدا كفاحهم، راجيا نصرهم ، فهو يعتبر نصرهم نصرا لمصر أيضا ٠

ويتحدث المترجم له عن فتح السودان ، ويرى ذلك خطرا على كيان مصر نفسها وافتئاتا على حقوق السلطان ، ووسيلة لاطالة بقاء الانجليز فى مصر ، ويرتب على هذا الموضوع آراء لابأس من تسجيل بعضها ، فيقول ان الاحتلال « سايق قدامه عساكرنا المصرية ، لمحاربة اخوانهم السودانية ، ومصاريف السفر من خزنتنا اللى مفاتيحها بيد الانجليز ، فحزنت على مصايب وطنى العزيز ٠٠ وكيف الانجليز يشهروا الحرب على السودان ، من غير مايستأذنوا مولانا السلطان ، ياهل ترى ديارنا المصرية ماهيش قسم من الممالك العثمانية ؟ ٠٠ عمرى ما أصدق أن سمو خديوينا من الحرب دى مسرور ، لأن جنابه سيد العارفين ، ويعرف أن محاربة السودانيين ، نتيجتهـــا مشومة على وادينا ، ومفيدة لأعادينا ، لأنهم اذا انتصروا على

السيد عبد الله العطايشي ـ يقصد التعايشي ـ ودقمة عثمان ـ يقصد عثمان دقنه ـ يتسلطنوا هم ذاتهم على السودان ، واذا انغلبوا مثل أول مرة يتخذوا كسرتهم حجة جديدة ، لاطالة اقامتهم في ديارنا السعيدة ؟ لا ٠ لا ٠ ديارنا حزينة من يوم مادخلوها ، فنوا رجالهـــا وأفقروها ٠٠ » الى آخر هـــذا المقال الممتع الذى شرح جزءا من سيرة فتح الانجليز للسودان ٠

ويعبث الانجليز بقبر المهدي ، ويسوء ذلك الســودانيين والمصريين ، ويرى أبو نظارة أن يكشف للعـــالم ما ارتكبه المستعمرون من وزر ، فنشر تحت عنوان (وحشية الانكليز وعدم مرحمتهـــم) قائلا « ولابد بلغكم ياخـــلان ، مافعـــله من القساوة الانكليشمان ، بمدينة أم درمان ، بجثة السيد احمد محمد بطل السودان ٠٠ الى متى تحلم على الانجليز يارحمن ، دول ثابروا على المظالم ، وداوموا على الطغيـــان ٠٠ أف من الانكليز ياماهم وحوش ، ياسلام عليهم متى قدرواما يعفوش٠٠ نراهم اليوم يفتحوا مقابر الابطال ، ويخرجوا الميت ويفعلوابه أشنع الافعال ، وفعلهم ده المشوم أجروه فى المهدى المرحوم ، أخرجوه من قبره وأمام أهله وناسه ، بيدهم النجسة قطعوا راسه ، وأعطوها لابن أخي غوردون الجنرال الخسيس ، اللىفى عهد المهدى مات فى أم درمان فطيس ، وفرقوا أصابعه بينهـــم ورموا ماتبقى من جسمه الطاهر فى بحر النيل ٠٠ » ويكادهذا العدد يكون وقفا على فعلة الانجليز وتصويرا لبغيهم ، باللغتين العربية والفرنسية وقد شرح هـــذا كله بطريقتـــه الطريفة وأسلوبه العامى المسجوع ، ورسم له صورا بديعة تحكى المقول فى وضوح يغنى عن الشرح الطويل ٠

وان ابن صنوع لايحمل على الانجليز فيمايعنىمصروالمصريين من شئونها المدنية أو يحمل عليهم فيما صنعوه فى السودان من وحشية لم تراع حرمة الموتى ، بل يحمل عليهم ويســخر منهم كلما جد فى حياة الانجليز جديد ، فتجد أكثر من مقال وصورة ورسم عما يصادفه الانجليز فى حربهم فىالترنسفال، وهو يشرح جهاد أصحاب البلاد ويسجل هزائم المستعمرين، ويطالب مواطنيه بأن ينتهزوا الفرص ويقوموا قومة رجلواحد،

ويفعلوا بالانجليز مافعله اخوانهم المجاهـــدون فى جنـــوب أفريقيا .

ومن روائع البحوث التى عرض لها يعقوب بن صنوع شئون الحرب بين اليابان والروس فى أوائل القرن العشرين ، فقـد حكى لنا فى تفصيل موضوع تلك الحرب وأسبابها واحتمالاتها، ولم يفوت عددا دون أن ينشر من أخبارها ماعتـــادت نشره الصحف الأخرى ، وزاد عليها بشرح الظروف وتفصيل الملابسات التى تحيط بالمحاربين ، وبين قدر العلم ومقامه فى توجيه تلك الحرب ، مندداً بتأخر الروس مبشراً بتقدم اليابانيين ، وقصارى القول انه قرأ ودرس عن تلك الحرب ماهيأ لصحيفته أن تسجل من الآراء والبحوث خير ماسجلته الصحف المعاصرة فى هـذا الموضوع الخطير .



جنازة جدة توفيق ..

وفى مقدمة المشيعين .. الثيران ! ..

وسوف نقرأ فى (أبى نظارة) أمورا تكاد تكون خاصـــة لاعلاقة لها بالشئون السياسية ، ومنها ذكره لوفاة جدة توفيق ووالدة اسماعيل وتعليقـه على جنازتها ساخرا بالكلام والرسوم ومنها حياته التى لايغفل عن ذكرها فيما روى عن النـــاس من قصص وحكايات ، وانه ليحدثنا عن تاريخه حديثا ممتعـا شائقا لايخرج عما نشرناه فى فصول ســـابقة غير أنه يخشى أن ينساه مواطنوه اذا مات فلا يكون لجهاده أو لتاريخه نصيب بين الأحرار ! وما نظنه بعد أن ترجمنا له هذه الترجمة ـ على

الأوروبية ، وكلها جدعان ظراف وصبيان لطاف ، وناس تخدم المحتلين ، ودا اللى زاد فى البله طين ، يحكموا من غير مايفهموا ، ويفهموا من غير مايحكموا ، أشباح بلا أرواح ٠٠ » ثم يختم سخريته اللاذعة بنقد المحتل في طرائق نظره الى حرية الصحافة، وقد جاء ذلك فى زجل طويل استغرق نصف صفحة كاملة ٠

وينتهز يعقوب بن صنوع الاحتفال بالعيد الستينى لولاية فكتوريا شئون الملك في بريطانيا ، فيرفع اليها خطابا مفتوحا ننقل فقرات من المقدمة التى قدم بهاهذا الكتاب بعنوان (اسحبى عساكرك من مصر تصبحى فريدة العصر) ، وفيها يقول « هذا موضوع مكتوبى لجلالة فيكطورية ملكة الانجليز ، اللى جرادها الأحمر بيتلف زرع وطننا العزيز ، ربنا ينجينا عن قريب من شرهم ، ويسلط عليهم زوبعة قوية تطيرهم لبرهم ، لأنهم اذا مانكشحوش من هنا لسنة من وادينا ، مين يعرف ايش يجرى فينا ، نموت من الجوع لأن الجراد فى الزيادة فى الغيطان والبلاد ، خلونا من الجراد الأحمر وسيرته الردية ، احنا فى مكتوبى للحضرة البريطانية ، اللى اليوم ملوك الدنيا بتهنيها ، على الستين سنة اللى بقى لها متسلطنة فيها ، نقشت لها المكتوب ده بلسانها لسان الوز ، وقلت لها ان كان بدك فى الفخر والعز ، والذكر الطيب بعد العمر الطويل ، اسحبى عساكرك ياستي من وادى النيل ، انما الكلام دا دخلته لها فى قالب لطيف ، بنفس سياسى ولسان ظريف ، لاشك أنها لما تقراه تنسر ، انما ما أظنش أنها تأمر بسحب عساكرها من البر ، تيقنوا يا أخوانى أن العساكر الانكليزية ماينجلوش عن مصر الا بالقوة الجبرية ، دول مايجوش بالمعروف ، ماينفعش معهم الا المتلوف ، ما ألعن سيرتهم عن الموضوع بتبعدنا ، ربنا يقطع جرتهم ومن ظلمهم ينجدنا ، المكتوب المذكور ترجمته بالفرنساوى ، ودرجته هنا حتى يقراه ويفهمه كل أوروباوى ، وتنقله عنى كل الجرائد الافرنجية ، لما فيه من أهم الأمور السياسية ٠٠ »

وهكذا لايفوت أبو نظارة مقالا الا ويهاجم الانجليز ويتخير لهم ألوان الشتائم وأقبح الأوصاف كأعداء للوطن لاينبغى أن يتهاون أحد فى خصامهم ٠

وقد يلاحظ المطلع على مجلات أبى نظارة ، أن صاحبها ينصرف

فجأة عن شئون مصر حتى ليخيل الينا أن السلطات المصرية أو البريطانية قد استطاعت التغلب على أريحيته واشترته فيمن اشترتهم من الكتاب والصحفيين ، وهذا نادر قليل في صحفه الكثار ، اذ أن انصرافه عن شئون مصر لم يحـــدث قط الا فى سنة ١٩٠٠ حيث شغلت صحيفة (أبو نظارة) بأمرين ، الأمر الأول وهو الأهم ، معرض باريس ، فقد كانت سجلا لهـــذا المعرض بصورها ورسومها ومقالاتها المفسرة الشارحة للمعرض وما احتوى عليه من أشياء ، المبينة الأغراض التى يلتمســها ، وقدره فى حياة الشعب الفرنسى ، واعلانه عن حضـــارة ذلك الشعب العتيد ، والأمر الثانى يتصل بحرب الترنسفال ، وفى غضون الـكلام عن تلك الحرب أشـــار الكاتب الى مصر فى بعض الأحيان .

ولم يصب ابن صنوع بحرج قدر ما أصيب بالحرج نتيجةعقد الاتفاق الودى بين الانجليز والفرنسيين سنة ١٩٠٤ ، فقدأغفل فترة التحدث فى هذا الموضوع ، ثم طلع علينا فى أحد أعــداد سنة١٩٠٥ بحديثغريب ، أولهيبدو فيه الحرج واضحاوالتخريج للحالة غير مفهوم ، فقد انتزع من الاتفاق أملا لم يره أحد ولم يؤمن به انسان « ماذا ينتج لوطننا العزيز من اتفاق فرنســـا والانجليز ، هذا سؤال اخوانىالمصريين ، سؤال مايعلمبهالا رب العالمين ، انما أنا كل مافتكر فيه ياسادة ، أقول المولىقادر على تبديل الذل بالحرية والسعادة ، ويمكن ان الاتفاق ده اللى زاد فى نفوذ الانجليز وفى سطوتهم على وطننـــا العزيز ، ينتهى بانجلاهم عن البر وتعود لنا مصر ونتفنطز وننبسط وننسر ، ربنا على كل شيء قدير ، وعلى السيد ينصرالأسير ، قلبىيحدثنى بأن اتفاق الدولتين علينا سعيد ، ونرى مصر خالية من الحمر فى عهد مولانا عبد الحميد » .

وهذا كلام أقل مايقال فيه انه فارغ ، اضطر الكاتب الىنشره ليتخلص من الحرج الذى أصابه كمواطن مصرى موضـــع عطف الفرنسيين ، فأن التاريخ قد كذب كل ماذهب اليه شـــعوره واحساسه ، بل ان منطوق الاتفاق يعنى أنه تثبيت للاحتلال وتأكيد له ، وليس اتفاقا سعيدا كما حدثه قلبه أن من شأنه أن يمهد لخروج الحمر من وادى النيل ، وقد عقب المترجم له على

هذه المقدمة برواية تتحدث عن الاتفاق، كان فيها مواليا للفرنسيين وخصما شديدا للانجليز ، غير أنها لاتعبر عن الواقع ، والواقع كان يكذب الرواية ومقدمتها ولا يسجل شيئا من حقيقة الحال ، والحال كان أسوأ من أن يخرجه بن صنوع هذا التخريج الغريب!

غير أن يعقوبا لم يخفف قط من معارضته للاحتلال وأذنابه سواء قبل الاتفاق أو بعده فقد حمل حملة شعواء على عالم دينى من أئمة الاسلام فى مصر « كتب بيراعه السيال رسالة لم تزل محفوظة عنـــد بعض الوطنيـــين تذكارا لمروق ذلك الامام عن واجباته الدينية والوطنية » فقد دعا الشيخ الى مهادنة الانجليز والاستفادة من وجودهم فى مصر لأن نظامهم « خفيف وظلهـــم لطيف وحكمهـــم يدر الخير ، ولم يعرب لنا حفظه المولى عمـــا نتج لأهالى تلك المستعمرات وفى مقدمتها الهند التى مر عليها أكثر من قرن وهى مستظلة بالعـــلم البريطانى ، من الفوائد الخصوصية الوطنيـــة حتى تحمل رســـالته المذكورة على أيدى الاحترام والاعتبار والامتنان ، ونتخذ قوله صـــادرا عن نزاهة وصدق فى الايمان ، وولاء واخلاص فى محبة الأوطان ، والا فيكون كلامه كواو عمرو ، يكتبها ولا يلفظها القراء ، ورسالته لامحل لها من الاعراب بين العلماء والأدباء » .

ثم يعرض يعقوب بن صنوع لمشاكل البـــلاد الـــكبرى فى أسلوبه العامى المأثور فنجد بحوثا طريفة فى مشكلة العقبة تحت عنوان (الأسد والنمر) ينشر المقال ويرسم له رسوما ممتعة تصور حقيقة الحال ، ويقف فيه الى جانب السلطان فى ثقة واطمئنان الى قدرته على حل المشاكل ! كما أشار فى موضع آخر الى الموقف الكريم الذى تقفه منا فرنسا وألمانيا وروسيا وذلك برسم بديع يبين ابليس يحمل انجليزيين الى جهنم لسوء معاملة بريطانيا لنا .

ولا نريد أن نطيل فى تاريخ ماتضمنته جريدة (أبو نظارة) وانما نسجل هنا طريفة من طرائفه التى تدل على بعد نظره ، بعد أن بينا قصر هذا النظر فى الاتفاق الودى ، انه يختلف اختلافا عميقا مع كافة المصريين الذين هزهم الفرح باقالة اللورد كرومر ، ان المصريين يعتبرون تلك الاقالة نصرا مبينا لهـــم وللحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل ، غير أن ابن صنوع

يتوجس خيفة من ذلك الحديث ، وينصح بالتريث تحت عنوان (ماتفرحوش لمن يروح لما تشوفوا من يجى) فيقول « ٠٠ تأملوا فى المثل ده ياكرام ، لأن له محل شاهد فى هـــذه الأيام ، بمناسبة استعفاء اللورد كرومر وانجلاه عن وادينا ، بعدماعمل كيفه ربع قرن فينا ، ودخول السار غرست فى مكانه ، وهو من أوفى أصدقاءه وأعز أخوانه ، بقى ماتفرحوش فى استعفاء اللورد كرومر وارتحاله ، لما تشوفوا غرست خليفته وتتأملوا فى أعماله ٠٠ »

ويقص أبو نظارة على مواطنيه نادرة من تاريخ الرومان فيها الحكمة والبيان الصحيح ، وفيها تفسير جميل لهذا المثل الذى يقوله دائما عامة المصريين ، فصاحبنا ينقل اليهم أنه كان هناك « ظالم خاين غدار ، طلع ذات يوم للحرب ومعه جيش جرار ، فرأى عجوز شمطاء زى أم المستر بول ، طالعة تجرى وراه وهى تصيح وتقول ، ربنا ينصرك ياملك الزمان ، وتعود سالم غانم للأوطان ، فعرفها الملك ودعاها فهرولت نحوه وهى تصـيح وتقول لبيك أنا جارية بين يديك ، فقال لهـــا كيف تدعى لى بالفوز والظفر على الأعادى ، وأنا قتلت اخوتك وزوجك وأولادك ، وظلمت أهل بلادى ٠

فقالت له المرأة : أبوك كان ظالم وجبار ، وكنا كلنا نتمنى له الموت طول الليل والنهار ، فربنا قبل دعانا ، ومن مخالبـه نجانا ، فمات وأنت خلفته فى الملك على الرومان ، فنراك فقته فى الجور والظلم والعدوان ، فلذلك نطلب لك العودة بالسلامة من الجهاد لخوفنا ان مت يطلع خليفتك أزرط منك فى الخباثة والرداوة والاستبداد » ٠

ثم يقول الكاتب لمواطنيه « فعلى شان كدا أنا ما أفرحشى فى الرايح ، قبلما أرى الجاى وأشوف ان كان يقبل النصايح ، ويعامل أبناء مصر والسودان ، باللطف والاحسان ، وينسينا حادثة دنشواى ، اللى حرقت القلوب ، واستعاذت بالله من سمعتها كل الشعوب ٠٠ »

لقد كان أبو نظاره يحكى لنا الحكمة فى كثـير من أقواله وملحه ونكاته ، ولعل حكايته هذه من أمتع ماتضمنته صحفه المختلفة ، وهو دائب التحذير لمن يحسن الظن بالعدو ، دائب

التأييد لمن يسعى لخدمة وطنه ، وان استقباله لاعلان الدستور في تركيا ، وتحيته لأعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، مثل طيب على اقتناصه الفرص في تمجيد الاحداث الكبيرة وأصحابها ، سواء كان ذلك في تركيا أو في أى بلد آخر حتى يمكن أن يأخذ منه المصريون العبرة فيعتبروا ويروا المثل فيحتذوه .

ويبدو أن الحماسة التي كانت تغلب على عواطف الكاتب في السنوات الأول هدأت بعض الشيء حين بلغت صحفه الثلاثين من عمرها ، ولعل للسن والأمراض دخلا في ذلك ، وقد أشار هو منذ سنة ١٩٠٦ بأنه لم يعد قادرا على الكفاح كما عود قراءه ، غير أنه يعد مواطنيه بأن يصدر صحيفة فرنسية في باريس تكون لسان الوطن في الخارج ، وان أعجزته السن والموارد عن الاستمرار في اصدارها حين تحققت أمنيته ، الا أنه لم يكف قط عن التلميح ، ثم التصريح باعتزامه اغلاق صحفه، حتى حلت سنة ١٩١٠ وهي السنة التي مرض فيها ولزم فراشه حتى مات سنة ١٩١٢ ..

وانه منذ مطلع القرن العشرين ، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيرا ما اضطر الى تأخير اصدار بعض الأعداد لأسباب التمسها ، وما أكثر ما التمس من أسباب ، كما أن الأخطاء المطبعية أو الخطية كانت انذارا بقرب النهاية وان جالد الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات .

ومنها أنه أصبح «اختيارا» ونظره ضعف ، ثم ان بلاده وبلاد الشرق عامة قد قامت فيها نهضة صحفية ولا محل لصحيفته بين تلك الصحف ، وهذه حقيقة سجلها وهو يختم نشاطه الصحفي العظيم ..

وانه منذ مطلع القرن العشرين ، وهو يحاول أن يصدر صحفه على النهج القديم غير أنه كثيرا ما اضطر الى تأخير اصدار بعض الاعداد لاسباب التمسها ، وما أكثر ما التمس من أسباب كما أن الاخطاء المطبعية أو الخطية كانت انذارا بقرب النهاية وان جالد الرجل في تأخير تلك النهاية سنوات ..

التودد

أصدر يعقوب بن صنوع ، الى جانب صحفه الساخرة ، عدة صحف أخرى ، كان طابع الجد فيها غالبا على رسومها وموضوعاتها ، وعلى رأس هذه الصحف مجلة (التودد) والتودد « جريدة شهرية أدبية علمية تجارية تحت رياسة جاك قطاوى بباريس ونظارة أبو نظارة » وقيمة الاشتراك فيها عشرة فرنكات عن سنة واحدة وستة عن نصف سنة •• وهى فى حجم الكتب العادية ، وتفصح عنها مقدمتها افصاحا أبلغ من شرحنا ، فقد قالت فى العدد الأول :

« حمدا لمدبر الكون الذى أناط نجاح الأمم بالمعارف ، وصاغ من العلم حلية بهية أدهشت كل تالد وطارف ، وشيد منه أركانا قوية كما شاء ، وأنزل أهله أسنى الدرجات وسماهم بالأحياء ، فهم مصابيح الأنام يستضاء بأفكارهم ويقتفى بآرائهم لهم السيادة على ماعداهم ، ولم يختص بالفصاحة وتقرير الاخبار سواهم ، وهم المحتاج اليهم فى جميع الاحوال ، والى أقوالهم المرجع والمآل ، وما من أمة تقدمت وكثرت ثروتها وراجت متاجرها وزادت قوتها وتنعم بالها الا باقتدائها بأهل العلم ، وما من أمة خذلت وتضعضعت الا باستبداد الرأى وسوء التدبير وحب الذات والاكتفاء بمشورة عدم الخبرة ، والغفلة جهل والجهل لا يهتدى صاحبه الى رشاد ولا يدريه فيطهره بالمداد ، ممقوت عند العامة ، منبوذ عند الخاصة ، لا يكاد يذكر حيا أو ميتا ، وكفى العلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به اذا نسب اليه ، وكفى الجهل ذما أن يتبرأ منه أهله ، وفى الأمثال السائرة « العالم حى ولو كان فى منازل الاموات ، والجاهل ميت ولو كان فى منازل الاحياء ، وصلاة وسلاما دائمين على جميع الأنبياء والمرسلين » ••

« وبعد لما رأينا هلال الشرق بعد انحطاطه آخذا فى الارتقاء الى برج الكمال الذى كان حالا فيه فيما مضى ، وتنبهت العقول فاستضاءت بمشكاة المعارف ومصابيح الفنون نشرنا هاته

الوريقات على رؤوس الانام وسميناها بالتودد أملا بأن تكون واسطة في الالفة والوداد بين الامم ، وشبهنا ما طلع في سماء صحفها بالبدر المنير لمناسبة ظهورها في الشهر مرة كظهور البدر ، وان نورها مستفاد من عقول الامم كما أن نور البدر الحقيقي مستفاد من نور الشمس ، وان كان نور البدر حسى (صحتها حسيا) ونورها معنوى (معنويا) ولم تشتمل الا على فنون ومعارف ومسائل علمية ومقالات أدبية وبعض من السياسة مما يلوح لنا من اللغات الأجنبية ، ونسأل المولى أن يعم نفعها كل مريد لأننا لم نقصد بها سوى بث الامن والراحة وتنوير العقول بالرغائب العلمية والآداب الدينية ، انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير » ..

وتختلف التودد اختلافا عميقا مع مجلاته الاخرى ، ويتناول هذا الاختلاف السياسة والمنهج والشكل فى معظم سنوات صدورها ، فهى سجل لنشاط دول الغرب والشرق وراوية لتاريخ الزعماء والامراء والملوك ، تفصل ذلك حتى تستغرق كل صفحاتها وقد لا نجد عن مصر شيئا لاعداد متتالية ..

وقد اقتصر المحرر في ذكر مصر على تاريخها القديم ، اذ نشر فصولا متصلة عن تاريخها وآثارها ، وعالج قصة بعض تلك الآثار فى أكثر من عدد ، وقلما كان يعرض للنواحى السياسية المعاصرة وخاصة فى السنوات الاولى ، وان زخرت مجلته بعد ذلك في رواية الحوادث المصرية ، ولم تشر الى تلك الحوادث في دقة وعناية الا حين كبر حجمها فبلغ حجم (أبو نظارة) وأصبحت في سيرة مجلاته معاونا أصيلا ومنافسا خطيرا

ثم أضيف تغيير طفيف الى اسم الصحيفة ابتداء من السنة الرابعة فسميت (تودد أبى نظارة) ويتصدر صفحتها الاولى قوله « تودد أبي نظارة ، جريدة سياسية أدبية بالرسومات مخلية » وقد بين اشتراكها وهو عشرة فرنكات فى السنة وعنوانها وما الى ذلك ، وقد أدخل عليها جديدا في هذا الفصل الممتع الذى لايكاد يخلو منه عدد وهو (فكاهة العقل) وهو حديث باللغة العامية ، يشبه كثيرا ما كان ينشر في صحفه الاخرى الساخرة ، كما تتميز تلك السنة بأحصائية طريفة عن اليهود وتعدادهم فى فلسطين ..

ومن الموضوعات السياسية التى عالجتها (التودد) حملتها على الانجليز للفظائع التى يرتكبونها فى حربهم مع البوير ، وقد جاءت تلك الحملة تحت عنوان (البوير لهم رب يحميهم ، ومن ظلم الانكليز ينجيهم) وقد بدأها بذكر سلطان تركيا وخديو مصر عباس الثانى بالاكبار والاجلال ، ثم دار بينه وبين «أبى خليل» حديث طويل ننقل منه بعض فقراته لنبين للقارىء مدى التطور الذى أصاب (التودد) فيقول على لسان أبو خليل « طيب والأبطال دول ونسوانهم وأولادهم لابد انهم البوير الاسود ·· الله الله على وجوههم السامية وعيونهم السود ·· لاشك أن البوير دول سكان قرية من قرى الترنسفال ·· هجم عليها ليلا الجنرال كتشنر وعساكره الاندال ـ وأخذوا الأهالى أسراء نساء ورجال » · ·

فيرد عليه أبو نظارة قائلا : « نعم وهاهو رايح يقتلهم بالرشاشة الجهنمية ·· ولو أن من سلم سلاحه حرم قتله فى شرايع الانسانية » ثم يعقب أبو خليل « الانسانية ما لهاش اعتبار ·· عند المستر شامبرلين الطماع وكتشنر الغدار ·· وكلامك ده يا شيخنا العزيز ·· رأيته فى جرانيل الانكليز ·· ما أخبث وما أفحش الحصايل ·· ولا البربر مايعملوش دى العمايل ·· وهو حد فى الدنيا يقتل الأسرى ولا يرثى لحالهم · ويذبح أمامهم والديهم ونساهم وأطفالهم ؟ ·· دول الانكليز ذاتهم بيسخطوا على كتشنر وشامبرلين اللى جلبوا لهم لعنة أمم الشرق والغرب ·· بفعايلهم الذميمة فى الحرب » ·

وهكذا أخذت (تودد أبى نظارة) تنافس فى أحيان صحيفته الاصيلة (أبا نظارة) ، وكانت تنشر أيضا بعض الرسوم وصور الاشخاص ملونة ، بل أن التودد ومعها صحيفة (المنصف) وصحيفة (العالم الاسلامى) كانت جميعا معاونات صادقات (لأبى نظارة) حتى حللن مكان بعض أعدادها ، وقداستكملت التودد أو تودد أبى نظارة السنة الثانية عشرة ثم اختفت نهائيا بعد أن عاونت فى أداء رسالة صحفينا الكبير ··

المنصف

« المنصف » احدى صحف يعقوب بن صنوع التى نشرها فى باريس وقد أصدرها فى حجم « أبى نظارة » الكبير فى سنة ١٨٩٩ وقد ظهر العدد الاول فى ١٥ فبراير من تلك السـنة مطبوعا على الحجر ، مكتوبا بخط اليد ، وهى كما يقول صاحبها « جريدة سياسية أدبية تجاريةمديرها ومحررها الشيخ ٠ ج ٠ سانوا أبو نظارة المصرى بباريس » وقد جعل اشتراكها عشرة فرنكات فى السنة « ترسل الى مديرها بطوابع بوستة أو بحوالة تجارية » وقد رسم على رأسها رسومات فنية مما يرسم عادة على منابر الجوامع والمساجد ٠٠

وللمنصف رسالة وأهداف يحسن تسجيلها كما هى لتتبين الاغراض التى انطوت تحت نشرها ، فقد وقع أبو نظارة على افتتاحية تضمنت ذلك كله وجاءفيها « أحمدك يا جميل الصنائع يا رفيع البدائع ٠٠ على فضلك الوافى ٠٠ وعونك الكافى ٠٠ أمرت بالعدل والانصاف ٠٠ وعلمت ما فى القلوب من وفاق وخلاف ٠٠ بفضلك يا مولاى نهضت ٠٠ وبمعونتك يا الهى نشطت ٠٠ لأبدأ هذه الصحيفة ٠٠ بآراء جلية شريفة ٠٠ اذ ليس الغرض من انشائها سوى الدفاع بكل صدق واقدام ٠ عن اخوانى أبناء الشرق الكرام ٠٠ وتبيان حقوقهم ٠٠ وسوء معاملة الغير معهم ومع أمرائهم وملوكهم ٠٠ ومدح من نراه محبـا لهم من الامم الغربية ٠٠ ومن يناضـل عنهم فى حومة الانسانية ٠٠ ويحفظ حقوقهم ويفى عهودهم ٠٠ لا سيما حقوق الامة الاسلامية ٠٠ وحقوق خليفتها المعظم ذى الفعايل المرضية ومن الانصاف أيضا ذم من يجور عليهم ويظلمهم ٠٠ أو يسلب أموالهـم ويستخدمهم ٠٠ أو يغور على بلادهم السـعيدة ٠٠ ويصيبحها بحلوله فى ضيقة شديدة ٠٠ ويتسلطن عليهم بحجة حمايتهم ٠٠ أو تمدنهم ورفع درجتهم ٠٠ وأرجو لجرنالى هـذا أن يكون منصفا لبنيه ٠٠ من محبى الشرق وأعاديه ٠٠ ولا فائدة فى كثرة التكرار ٠٠ والاشارة تنبى النبهاء الاخيار ٠٠

وما أوضحته آنفا فيه كفاية المعلومية . وان اتحفتموني ياقرائي بآرائكم الصائبة ومقالاتكم البهية بشأن معاملة الغربيين مع الشرقيين .. من قبائح وملائح فلا بأس من المحبين .. حتى اني أبذل الجهد في الدفاع .. عنهم في هذه النشرة وأجيد القراع .. وأملي دوام هذا الشان بصواب ومسرة واحسان ، ولا فلاح .. الا من الفتاح » ..

وحقا أدت المنصف رسالتها أحسن الاداء في هذه الفترة القصيرة التي عاشتها ، أي في السنتين اللتين صدرت فيهما ،

وتميزت السنة الثانية من حياة (المنصف) بالتعرض للشئون السياسية الصارخة ان صح التعبير ، وعاد الكاتب الى حماسته الوطنية الملحوظة ، فجعل بعض الافتتاحيات حملات متصلة على الانجليز وسياستهم في وادي النيل ، وله في هذا مقال ممتع عنوانه (الشهر الآتي الانكليز .. تنجلي عن وطننا العزيز) وقد شرح ذلك في ألفاظ لايمكن أن ننشرها في مطبوع ، بل لايمكن أن تحكي على لسان ؟! ..

واحتلت سيرة البوير وحربهم للانجليز مكانا ملحوظا من صحيفة المنصف في سنة ١٩٠٠ وفيها من الشماتة بالبريطانيين شيء كثير ، وهو يربط دائما في التحدث عن البوير وثورتهم بين كفاحهم وكفاحنا ، وقد حدثنا في ذلك حديثا ممتعا بعنوان (حقا البوير جدعان .. أما الانكليز جديان) .

غير أنه حدثت فيه من فحشى القول مايصعب علينا نشره ، ويكفي أن نشير اليه في العنوان ، والعنوان يغني عن كل بيان !.

العالم الاسلامى

نختم بهذه الصحيفة تاريخ النشاط الصحفى ليعقوب بن صنوع ، وهى صحيفة تتميز بأشياء جديدة ، تتميز بلغتها الفرنسية التى انفردت بها ولم تشاركها فيها لغة من اللغات الاخرى ، وتتميز بورقها الضارب الى الحمرة ، وصورها الواضحة المعالم والاشخاص ..

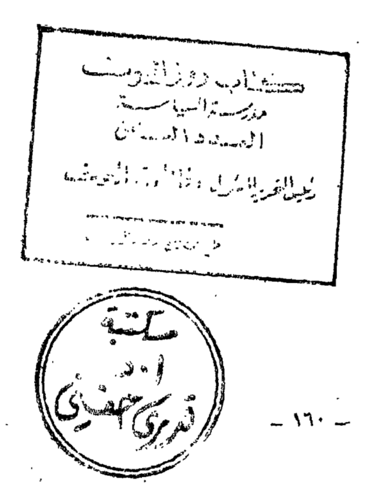
هى صحيفة (العالم الاسلامى) لمديرها ومحررها الأول « شاعر الملك الشيخ . ج . سانوا أبو نظارة » وتقول فى رءوس أعدادها أنها صحيفة « أدبية تجارية ، صناعية مالية » وتشير الرسوم المنشورة دائما فى رءوسها الى أنها صحيفة العالم الاسلامى حقا ، فقد رسمت على جانبى اسمها قبابا ومآذن وأشخاصا باللباس العربى الأصيل ، وباللباس المصرى ، مما يعطى صورة عن أنها تعبر عن أصحاب تلك المآذن والقباب ، وقد قررت عشرة فرنكات اشتركا لها وعشرين فرنكا مع (أبو نظارة) وخمسة وعشرين فرنكا للصحيفتين وما يصدر عنهما من ملاحق ..

أما أهداف الجريدة فقد بينها صاحبها وهو يحدثنا عن مجموع أعداد « أبى نظارة » و« العالم الاسلامى » لسنة ١٩٠٧ اذ يقول « أهديك يا حضرة القارىء فائق احترامى .. وأرجوك قبول مجموع أعداد جريدة أبى نظارة ومجلة العالم الاسلامى ..

« ايش قولك ياعزيزى فى هذا الكراس الكبير .. ماهوش عال العال ومزين بأفخر التصاوير ؟ اتحفه بنظرة من أنظارك الجليلة .. ترى فيه مقالات جميلة .. كلها مدح وثناء فى جلالة مولانا السلطان .. حفظه وحرسه ونصره الرحمن .. وكذا ترانى أبجل علماء وشعراء الترك والفرس والعرب .. اللى أقوالهم كلها طرب .. انما الاعداد دى وردت لك فى مواعيدها يا صاح .. واطلعت على ما حوته من الجمل والصور الملاح .. ورأيتنى أقاوم الانجليز .. وأدافع بالباع والذراع عن حقوق وطننا العزيز .. وليل ونهار أرفع عينى الى السماء وأقول :

يا ربى انقذ مصرنا من مخالب المستر بول ٠٠ لان وادى النيل من الممالك العثمانية ٠٠ فكيف يتسلط عليه جيش الحكومة البريطانية ؟ ٠٠ واليوم كل سنة وانت طيب يا ابن الكرام »٠

هذا هو حديث يعقوب بن صنوع عن صحيفتيه فى سنة ١٩٠٧ ، وهى من الصحف الباقية من صحفه الكثار ، غير أن مجلة (العالم الاسلامي) لم تعمر طويلا ، ولم يصدر منها فى سنتها الأولى الا ثمانية أعداد ، وفى سنتها الثانية لم يصدر صاحبها منها الا أربعة أعداد فقط ، ثم اختفت ولم يبق من صحفه الا (أبو نظارة) التى عاشت الى سنة ١٩١٠ ولم تقف عن الصدور الا بعد أن كاد أن يكون كفيف البصر ، وبعد أن عجزت صحته عن مداومة صدورها ، وثقل به المرض فأمضى فى سريره نحو سنتين يجاهد فى سبيل الحياة من غير نتيجة حتى نزل به قضاء الله فى سنة ١٩١٢ ونعته الصحف ووكالات الأنباء » ٠٠ ،








Bibliotheca Alexandrina
06471173
92
8a